الممكن

(متوقَّع وغير متوقَّع)

د. عقيل حسين عقيل

القاهرة

2018م

(فكّر في الممكن ولا تتوقّف تعرف المتوقَّع وغير المتوقَّع، وأنَّ الصَّعب يهزمه التحدّي)

د. عقيل حسين عقيل

المحتويات

المقدِّمة 5

الممكن 7

المتوقَّع وغير المتوقَّع 7

مكوِّنات دائرة الممكن 7

الممكن: 7

المتوقَّع: 8

غير المتوقَّع: 9

الممكن امتداد في دائرة الزّمان: 13

الصّعب أمل في دائرة الممكن: 15

غير المتوقّع صُنع خوارق: 23

المستحيل معجز لا يلحقه الممكن: 29

الممكنُ ارتقاء: 31

الأمل ممكن: 37

الممكن ارتقاء: 41

ارتقاء الخَلق الآدمي: 44

ارتقاء الأخلاق: 47

ارتقاء آدم: 51

ارتقاء بني آدم: 53

بنو آدم بين الارتقاء والدّونية: 60

الارتقاء الإنساني 65
مرحلة الفطرة: 65
مرحلة التقليد: 75
مرحلة توليد الفكرة: 85
مرحلة تطوّر الفِكَر:..... 96
تطوّر الفِكَر جدلا وحجّة: 101
مراحل 108
الارتقاء قاعدة واستثناء..... 108
. مرحلة العبودية: 110
. مرحلة الإقطاع (feudalism): 111
مرحلة رأس المال: 111
المرحلة الشيوعيّة:..... 113
الفوضويّة في كلّ المراحل:..... 114
الارتقاء عملا: 121
صدر للمؤلّف 127
المؤلّفات..... 127
لمؤلّف في سطور..... 140

المقدِّمة

الممكن يحتوي كلّ ما هو متاح ومحتمل حتى وإن كان غير ميسَّر للعموم، ما يجعل الصّعوبة والخارقة من محتوياته بين متوقّعٍ وغير متوقّع.

يحتوي مفهوم الممكن وجوبية التفكير في الشيء المشاهد والشيء المجرد، مع عدم وضع إشارة قف أمام العقل البشري حتى يبلغ عن بيّنة معرفة المعجز معجزا، والمستحيل مستحيلا، وأنّ وراء كلّ شيئا مشيء له.

يتضمّن مفهوم الممكن ما يشير إلى عدم الاستغراب إذا تمّ التفكير في غير المتوقّع قبل وقوعه، وفي المقابل يشير إلى الاستغراب إذا لم يتمّ التفكير في غير المتوقّع؛ ولهذا دائما حدوث المتوقّع لا استغراب فيه.

ولأنّ عقل الإنسان مصدر التفكير، فالتفكير لا يقتصر على معرفة الممكن، بل يتعداه إلى معرفة المعجز والمستحيل، والفرق بينهما:

المعجز: ما لم تَقدر عليه مقدرة العقل، ومع ذلك يؤخذ عقلا وإيمانا معجزا كما هو في حالة الإنباء الذي لا يتم إلّا من عند الله تعالى للأنبياء والرُّسل المصطفين عليهم الصّلاة والسّلام. أمّا المستحيل: فيفوق مقدرة الرّسل الكرام ومقدرة غيرهم من البشر، لأنّه لا يكون إلّا خلقا بأمر الخالق جلّ جلاله.

وعليه: فإنَّ مقدرة العقل البشري تتمدّد في دائرة الممكن (متوقّعا وغير متوقّعٍ) وفقا للمحطات التدبّرية التالية:

1 ـ المتوقّع: وهو الذي عند حدوثه لا يحدث الاستغراب، ولا توضع علامات الاستفهام، والتعجّب كونه المتوقّع سواء أكان موجبا أم سالبا.

2 ـ غير المتوقّع: وهو الذي بحدوثه يحدث الاستغراب وتكون المفاجآت سواء أكان موجبا أم سالبا، وبه قد تسفّه الخطط والاستراتيجيات، ممّا يستوجب إعادة التخطيط وفقا لأهداف لم يسبق التفكير فيها.

3 ـ الصّعب: يحتاج إلى مضاعفة الجهد والإمكانات مع صبر وقبول التحدّي دون تردد في البحث عمّا يخرج من التأزُّمات.

4 ـ الخارقة: عمل ينجز، به يتم بلوغ ما لم يكن في الحسبان، ممّا يجعل المفاجأة إضافة جديدة بقوانين غير مسبوقة.

ولأنَّ الممكن (متوقّع وغير متوقّع) فهو أبواب مفتّحة في اتجاه التقدّم والارتقاء والتطوّر وكلّ ما من شأنه أن يُحدِث النُّقلة؛ ولذلك تتطوّر العلوم والمعارف بتطوّر العقول الباحثة عن معرفة المزيد رفعة.

أ. د. عقيل حسين عقيل

القاهرة

2018م

الممكن

المتوقَّع وغير المتوقَّع

تتكوّن دائرة الممكن من المتغيرين الرئيسين (المتوقّع وغير المتوقّع) اللذين تؤسّس عليهما التساؤلات أو الفروض الممكن إثبات صحتها أو بطلانها، وباستخدام الطرق الإحصائية يمكن التمييز بين ما هو متوقّع وما هو غير متوقّع ومعرفة أثره الإحصائي.

وباستخدام خماسي عقيل لتحليل القيم تتضح الاستخدامات المتعددة لما هو متوقّع ولما هو غير متوقّع في دائرة الممكن، بما يمكّن من التمييز الإحصائي الذي يتم به قبول أو رفض الفرضية العدمية.

مكوِّنات دائرة الممكن

الممكن:

وهو الذي (لا شك في حدوثه، أو ظهوره كلّما توفرت معطياته أو شروطه).

ولهذا؛ لا يعد الممكن مستحيلا، وبما أنّه غير مستحيل إذن: بالضرورة سيقع وفقا لما نتوقّع أو وفقا لما لا نتوقّع.

وتتكون دائرة الممكن من (المتوقّع وغير المتوقّع) التي تتساوى فيها فرص ظهور كل منهما وفقا للفرض الصفري بنسبة ثابتة قدرها (50%) كما هو مبين بالشكل (1).

الشكل رقم (1)

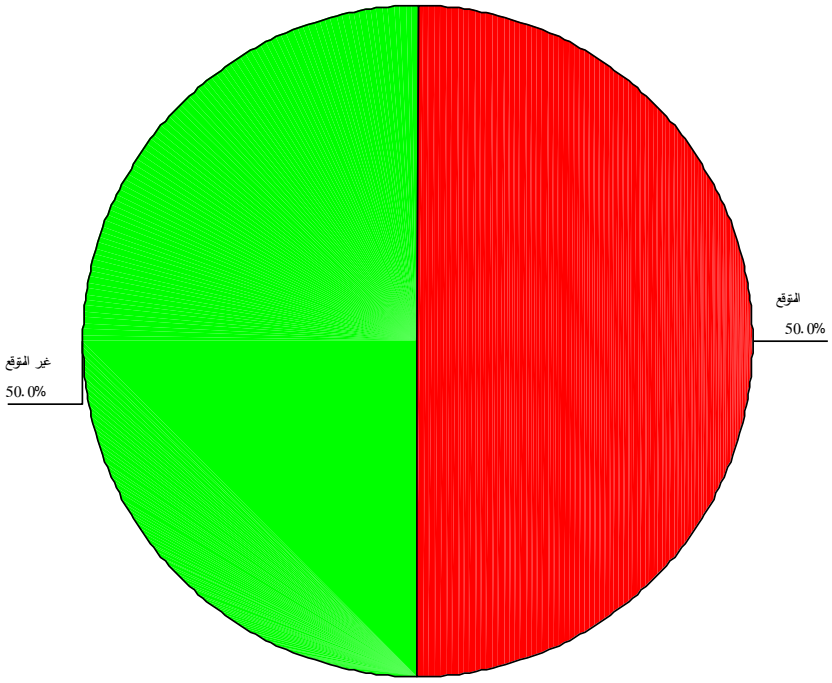

المتوقَّع:

هو الذي (بحدوثه أو ظهوره أو وجوده لا تحدث المفاجأة ولا الاستغراب).

ولهذا فالمتوقّع معطيات حدوثه أو ظهوره متوفرة بين أيدي الباحثين، ما يجعل صحة إثباته (هو كما هو) وعليه إذا ما وقع لا تحدث المفاجأة ولا الاستغراب. والمتوقّع يمكن أن يكون سالبا، ويمكن أن يكون موجبا وفقا للآتي:

الموجب المتوقّع: كلّ قول وفعل وسلوك وعمل يترك أثرا مرضيا في نفس الأنا والآخر، والذين لا يأخذون حذرهم يقعون في هذا المربّع؛ ولذلك خططهم ترسم على موجب متوقّع، وكأن الحياة لا تُحفُّ بالمخاطر، وكأن العلائق بين النَّاس لا تبنى إلّا على الصّدق؛ ولذلك هم يفاجأون.

أمّا السَّالب المتوقّع: فهو كلّ قول وفعل وسلوك وعمل يترك أثرا موجعا في نفس الأنا والآخر، من مظالم وعدوان وخروج عن القيم الحميدة والفضائل الخيّرة. والحذرون هم الذين يقعون في هذا المربع. ومع أنَّهم يتوقّعون وجود سالب ويعملون على تفاديه فإنّهم يقعون في الفخ.

غير المتوقَّع:

هو الذي لا تتوفر معطيات أو شروط حدوثه أو ظهوره بين أيدي البحاثة، ومع ذلك يقع ما يجعله في حالة تساوٍ نسبي مع المتوقّع في دائرة الممكن؛ ولهذا إذا ما وقع تقع المفاجأة أو الاستغراب.

ولذا، يقع (غير المتوقّع) أو يحدث دون قراءات أو حسابات سابقة، أو نتيجة قصور في القراءات والحسابات السابقة على وقوعه، ما يجعله يقع (كما هو) إثباتا.

وعليه: ينبغي أن يتم التعرف على غير المتوقّع وعلى علله ومسبباته لاحقا ليتم التعرف على نقاط الغفلة أو القصور التي لم تؤخذ في الحسبان المسبق.

فعلى سبيل المثال: كان إعصار كاترينا (*Katrina*) في 2005/8/24 بالولايات المتحدة الأمريكية متوقّعا، ما جعل الاحتياطات تؤخذ وفقا لما هو متوقّع، ولكن الذي لم يكن في الحسبان درجة شدته ومستوى الدّمار الذي خلفه، ولهذا كانت الاحتياطات المأخوذة ليست في مستوى وقوع الإعصار.

فغير المتوقّع يمكن أن يكون موجبا ويمكن أن يكون سالبا كما هو مبين في الجدول رقم (1) والشكل رقم (2).

الموجب غير المتوقّع: على سبيل المثال، ميزانية ليبيا وضعت في هذا العام 2005م وفقا لخطة معتمدة على أسعار النفط المقدَّرة 16$ للبرميل المصدَّر، ولكن الذي حدث أن أسعار النفط ارتفعت بشكل سريع في السنة ذاتها إلى ما يزيد على 60$ للبرميل المصدَّر، واستمر في الارتفاع الموجب غير المتوقّع بالنسبة للمُصدّرينَ للنفط. وعليه يجب أن يراعى في رسم الخطط والاستراتيجيات الموجب والسَّالب المتوقّع، والموجب والسَّالب غير المتوقّع بنسبة الزيادة والنقصان وفقا لدائرة الممكن.

السَّالب غير المتوقّع: ميزانية ليبيا وضعت وفق خطة متوقّعة قبل عشر سنوات من عام 2005م بناء على أسعار النفط في ذلك الوقت حيث كان سعر البرميل الواحد 18$ تقريبا. الذي حدث أن أسعار النفط انخفضت إلى 8$ تقريبا. هذا الأمر جعل الخطة في دائرة السَّالب غير المتوقّع؛ لأنَّ الدخل المتوقّع من النفط لم يتوفّر، ولهذا لم ينفّذ ما خُطط له مسبقا.

وعليه: ينبغي أن تُرسم الخطط والسياسات والاستراتيجيات وفقا لدائرة الممكن التي تحتوي ما هو متوقّع موجبا، ومتوقّع سالبا، وغير متوقّع موجبا، وغير متوقّع سالبا، والشكل رقم (2) يبيّن نسبة كلٍّ منها وفقا لـ(خماسي عقيل لتحليل القيم)[1]. ولذا فالممكن ليس المستحيل الذي لا إمكانية لوصوله أو بلوغه عبر الزّمن؛ ما يجعل كل ما هو غير مستحيل يقع في دائرة الممكن.

[1] انظر نظرية خماسي تحليل القيم، للدكتور عقيل حسين عقيل، دار الكتاب المتحدة، بيروت، 2004م.

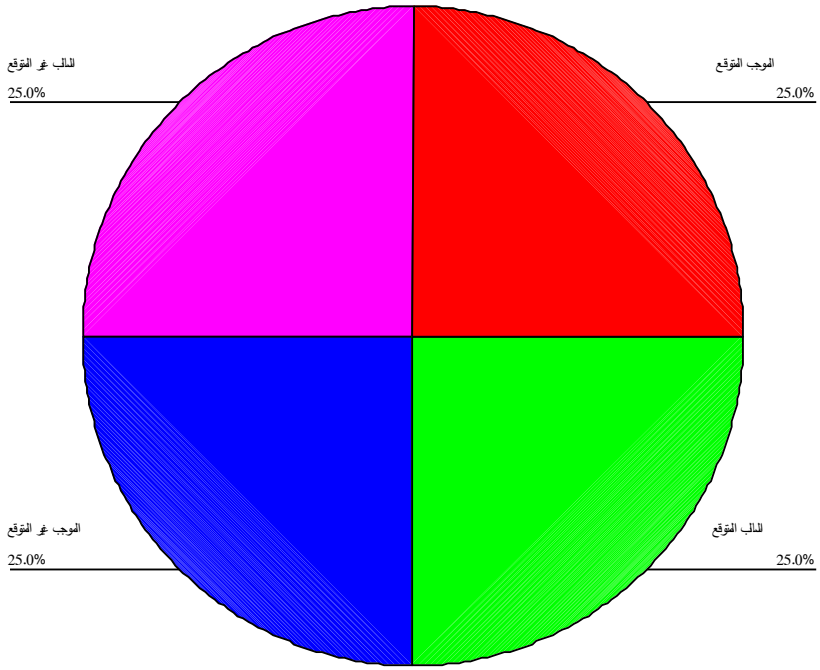

الشكل رقم (2)

وعليه:

. لا ظهور للأشياء ما لم تكن في دائرة الممكن.

. لا كمون للأشياء ما لم تكن في دائرة الممكن.

ولهذا فالقاعدة هي:

1 . ظهور الممكن.

2 . كمون الممكن.

والاستثناء:

1 . عدم ظهور الممكن.

2 . عدم كمون الممكن.

لذلك ينبغي أن ترسم الخطط والاستراتيجيات وفقا لقاعدة: (كل شيء ممكن).

أمّا المستحيل فلا يمكنه العمل به حيث خروجه عن دائرة الممكن (خارج دائرة عمله- خارج حدود مهنته- خارج طاقاته وقدراته).

ولذا فإنَّ المستحيل بيد الخالق، والمخلوق به يسيّر.

أمّا الممكن من صلاحيات المخلوق، وهو به مخيّر. ولأنَّ الممكن ليس بمستحيل

إذن:

. فكّر.

. نظر إلى الكيفية التي عليها الأشياء وعليها المخلوقات حتى تعرف العلل والأسباب التي وراءها.

. خطط.

. اعمل بلا تردد.

. تأكد قطعا للشك أنّ كل شيء ممكن.

. لا تيأس إن فشلت في المحاولة الأولى.

. قيّم ما قمت به من جهد.

. كرر المحاولة باجتياز ما وقعت فيه من أخطاء.

. أنت قوّة فاقبل بتحدّي الصّعاب.

. تأكد فأنّ الصّعاب تُدلل أمام إصرارك وأمام عملك.

. تأكد أنّه لا وجود للمستحيل في دائرة الممكن المتوقّع وغير المتوقّع.

ولذا فالمتوقّع استقراء وفق حسابات أو معطيات أو مؤشرات. أمّا غير المتوقّع فهو المتاح لمن لم يضعه في خانة الاستثناء.

وعليه:

لو لم يكن المتوقّع في دائرة الممكن ما كان لأحد أن يتوقعه.

وكذلك لا يمكن أن يحدث أو يظهر غير المتوقّع ما لم يكن في دائرة الممكن.

وبما أن كل شيء ممكن، إذن: فلماذا الاستغراب؟

الاستغراب: لحدوث أو ظهور غير المتوقّع، بدلا مما هو متوقّع. أي ظهور ما لم يكن في الحسبان.

الممكن امتداد في دائرة الزّمان:

بما أنّ الممكن امتداد متوقّع وغير متوقّع في دائرة الزّمان، وأنّ الزّمان يمتد ماضيًا وحاضرًا ومستقبلًا، فبالضرورة ستتباين صوره من وقت لوقت آخر.

في الماضي: بالنسبة لنا ونحن في هذا الزّمن الحاضر ما كان متوقّعا أو غير متوقّع قد وقع بالفعل أو لم يقع بالفعل. ولهذا يعد الممكن مثبتا ولن يعد متوقّعا من حيث الحدوث من عدمه. ولكن مع أنّه أصبح مثبتا فإنَّه في حاجة لبرهنة تُمكِّن المتحاورين أو البحاث أو الدارسين من معرفته دليلا وحقيقة. فالممكن يرتبط بالوقت (**الآن**) في كل زمان من الأزمن الثلاثة. ولهذا يسبق الممكن وقوع الفعل أو المترتب على ما هو متوقّع أو غير متوقّع أي: نتوقع أوّلا، ثم يقع ما توقعناه، أو لا يقع. وهذا ما لا ينطبق على الزمان الماضي الذي فيه وقع الفعل أو الحدث.

ولذا مع أنّ أفعلا قد حدثت قبل سنوات، فإنَّ الاستغراب مازال يلاحق الممكن في غير زمانه. وهذا هو الاستثناء الذي يحيد عن القاعدة التي تنص على أنّ (المتوقّع وغير المتوقّع في دائرة الممكن) يسبقان حدوث الفعل.

وعليه: لا تُصدِر أحكاما مسبقة على الأشياء السّابقة على أحكامك. ولكن تبيَّن، ثم احكم.

فالمتوقّع وغير المتوقّع المتعلق بالزّمان الماضي هو في حاجة للبحث عن دليل إثبات أو برهنة تُثبت وقوعه بالفعل أو عدم ثبوته لأجل أن تطمئن القلوب ويتم التبيّن الذي ترسم الخطط به بأقل الخسائر في دائرة الاستثناء.

أمّا في الوقت (**الآن**) الزّمن الحاضر، فالمتوقّع وغير المتوقّع يسبقان حدوث الفعل أو وقوعه، ويظل الانتظار إلى أن يحدث أو لا يحدث. أمّا الفعل أو الحدث المتوقّع أو غير المتوقّع سيظل في الزّمان المستقبل. ويكون المتوقّعون وغير المتوقّعين في دائرة الممكن في حالة انتظار إلى أن يأتي الزّمان الذي فيه الفعل أو البرهان أو الدليل المثبت.

بناء على ما سبق فالقاعدة هي: أنّ دائرة الممكن (المتوقّع وغير المتوقّع) تسبق الفعل والسّلوك. والاستثناء: يقع الفعل أو يحدث السّلوك قبل توقعه أو عدم توقعه في دائرة الممكن.

ولهذا:

فالممكن يُلاحق الماضي.

ويتزامن مع الحاضر.

ويسبق المستقبل.

وعليه:

! . فكّر في المتوقّع.

2 . فكّر في غير المتوقّع.

3 . خطط في دائرة الممكن.

4 . لا تستغرب.

5 . تطلّع فإن كلّ شيء ممكن.

6 . تحدَّ الصّعاب فهي لا تصمد أمام المتحدّين.

ولذا؛ فلا تستغرب، كلّ شيء ممكن، سواء أكان متوقّعا (ما يؤخذ في الحسبان) أم غير متوقّع (ما لم يؤخذ في الحسبان) الذي كلّما توفرت شروطه تم تحقيقه أو بلوغه. أي: يحدث الاستغراب كلّما حدث غير المتوقّع في الزّمن الذي ينتظر فيه ظهور المتوقّع.

الصّعب أمل في دائرة الممكن:

الصّعاب هي تلك الأعمال التي تستوجب مزيدا من الجهد دون أن تكون مستحيلة التحقّق؛ فهي التي تواجه من يأمل ولا تواجه الكسالى، وهي التي لا تصمد أمام المتحدّين لها صبرا ومزيدا من الثبات وبذل الجهد الممكّن من إنجاز الأهداف أو تحقيق الأغراض أو بلوغ الغايات ونيل المأمول أو الفوز به؛ فلا مستحيل في دائرة الممكن، حتّى وإن كان الصّعب يملأ نصفها، ومن هنا، وجب العمل على تذليل الصّعاب كي تتيسّر الأمور ارتقاء؛ فالصّعاب إن لم تداهم ارتقاء، لابدّ أن تداهم من لم يداهمها، وحتى لا يحدث ما لم يحمد عقباه ينبغي تحدّي الصّعاب تهيؤا، واستعدادا، وتأهّبا، وعملا راقيا تنجزه الإرادة والأمل لا يفارق.

ومع أنَّه لا صعب أمام مزيد من بذل الجهد ارتقاء، لكن لا ارتقاء لخرق المستحيل؛ فمن المستحيل أن يكون الإنسان عالما بلا علم، وفي المقابل يمكن له أن يصبح عالما بالرّغم من الصّعاب.

وعليه:

فالقاعدة: (تحدِّ الصِّعاب) أمّا الاستثناء: (الاستسلام إليها).

ولأنّ الممكن ارتقاء يُمكّن من تحدّي الصّعاب، فَلِمَ لا يتهيأ الإنسان إليها قوّة تدبّر والأمل لا يفارقه، ممّا يجعل التهيّؤ للعمل لا مكان فيه للتردّد في نفس المتهيئ لأدائه أملا، ولذلك فمن يتوقّع أنَّ أداء العمل ميسَّر فلا يستغرب إن واجهته صعاب تحول بينه وبين تنفيذه.

ومن تهيّأ واستعد لتحدي الصّعاب والمأمول لا يفارقه ليس بالأمر الهين أن يتهيّأ لِما يُغيِّره عن الاستمرار فيها، إلّا إذا فكَّر وتذكَّر وقَبِلَ إرادة أنَّ المعلومة في دائرة الممكن المتوقّع وغير المتوقّع لا تُصحح إلّا بالمعلومة الحاملة للحُجَّة، ومن هنا؛ فكلّما توفَّرت الأفكار والحُجج تجاه المأمول كونه كانت استجابة التهيّؤ للحدث أسرع، وكلّما تضاءلت الأفكار أو انعدمت، كانت عملية التهيّؤ متباطئة لحين استجماع الأفكار عن الحدث الخارجي الذي يُودّ الوقوف عليه.

فالتهيّؤ للقول الصّعب يؤدّي إلى الاستعداد لأنّ يقال بإرادة، والتهيّؤ للعمل المنتج يؤدّي إلى الاستعداد لأن يُفعل بعد تأهّب، ومن ثمّ فالتهيؤ لبلوغ المأمول يؤدّي إلى نيله.

ومع أنَّ الممكن ارتقاء لا استحالة فيه، ولكن إن لم يعقب التهيؤ استعداد فلا إمكانية، حيث لا أمل، ولذلك؛ فإنّ غياب الأمل يغيّب كلّا من التهيؤ والاستعداد، ومن ثمّ، تقوى درجة الاستعداد المترتّبة على الإرادة

والتهيّؤ بقوّتهما وتضعف بضعفهما وحينها لا إمكانية لتحدي الصّعاب؛ أي: لا تحدّ بلا أمل وإرادة، ولا تهيؤ، ولا استعداد، وحتى إن اجتمعت في دائرة الممكن تظلّ منقوصة ما لم يتمكّن الإنسان من التأهب لأداء العمل وبلوغ المأمول والفوز به.

وعليه:

إذا أردت تحدَّ الصّعاب أملا فعليك بالآتي:

. ألَّا تحصر التفكير في شؤونك أو شؤون الغير الذي تربطك به علاقة وأهمية على المتوقّع فقط، بل تجاوزه إلى ذلك غير المتوقّع حتى وإن كان صعبا.

. تأكّد أنّ الصّعب لا يستطيع المقاومة إذا تحصّنت له متحدّيا.

. اصمد فالصّعب لا يصمد، وعليك أن تعرف أنّ ما يبدو صعبا للبعض لا يبدو كذلك لدى البعض الآخر، ولهذا عليك بقبول التحدّي حتى تهزمه كما غيرك هزمه.

. الصّعب لا يزيد على كونه حيويّة فينبغي أن يواجه بها ولا يواجه بغيرها. أي: لا يمكنك أن تهزم خصما وأنت لم تمتلك ذات السّلاح الذي يمتلكه تقنية. ولكن عندما تمتلك ذات السّلاح؛ فليس له بدّ إلّا أن يقدّرك ويحترمك ويعترف بك مساويا له على كفّة العدالة، {وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ}[2].

. مواجهة الصّعب لم تكن مستحيلة، فَلِمَ لا يواجه إلّا من البعض؟

أقول:

[2] الأحزاب 25.

لأنَّ البعض أفضل من البعض، أي: دائما أصحاب الآمال العريضة والواعون والصّابرون والمؤمنون يواجهون التحدي بتحدٍّ.

. اقبل بدفع الثّمن جهدا ووقتا وإمكانات تنل أضعافها مكاسب وفوائد متى ما استسلم لك الصّعب قهرا.

. تحدَّ الخوف الذي يقنعك كسلا أو يخالجك جبنا، فاعمل وابذل المزيد من الجهد، وفي المقابل إن استسلمت فستجد نفسك متسوّلا مع المتسوّلين على الأرصفة وبين الأزقة.

. هَبْ نفسك للعمل تجد العمل بين يديك، وهَبْ نفسك للتحدّي تجد نفسك متحديا، وهَبْ نفسك لمواجهة الصّعاب تجد الصّعاب مستسلمة.

ولذلك؛ فالغاية بعد معرفة الحلّ هي بلوغ المكانة الممكّنة من بلوغ الأمل رفعة، وعيش النّعيم، وهذه مع أنَّها غايات ستظل في دائرة الممكن ارتقاء بين متوقّع وغير متوقّع، والعاملون عليها هم وحدهم يتهيأون لها، ويستعدون إليها، ويتأهبون لتحدي الأمر الصّعب، ثمّ يفعلون ويعملون حتى يبلغوا الغايات ومن بعدها نيل المأمول. ولكن وفقا لدائرة الممكن (المتوقّع وغير المتوقّع) كلّ شيء قابل لأن يتغير كلّما توافرت معطياته أو اشتراطاته.

ولذلك تتماثل دائرة الثابت والمهتز مع دائرة المتوقّع وغير المتوقّع، من حيث: إن 50% من الدّائرة هو ثابت أو متوقّع، وإنّ 50% من الدّائرة هو المهتز أو غير المتوقّع. وهذا يعني: أنّ النسبي سيكون بين موجبٍ وسالبٍ، أي: أنّ الثابت والمهتز كلّ منهما معرّض لأن يكون سلبيا أو إيجابيًّا، أو أن يكون نتاج الأعمال السالبة أو الموجبة. ولهذا تتداخل الحركة مع السّكون، ويتداخل السّكون مع الحركة.

وعليه: لو لم يكن الثبات نسبيّا، ما تغيّرنا وما تغيّرت أحوالنا. ولو لم يكن الاهتزاز نسبيًّا ما أُصلحت أحوال المنحرفين، ولما تمكّن الأخصائيون الاجتماعيون والنفسيون من إعادتهم للقاعدة (الإنسان قوّة) فيجب أن يكون الإنسان على القوّة ويقبل تحدّي الصّعاب من أجل بلوغ المأمول ونيله، ولا استغراب إذ (كلّ شيء ممكن).

ولذلك فتَوفُر الرّغبة في دائرة الممكن المتوقّع يُسهِّل من عمليات التحصيل والإنجاز، ويُسرّع من عمليات الإقدام ويحقّق نجاحا رائعا، أمّا في دائرة الممكن غير المتوقع فقد لا يحقّق ذلك؛ فعلى سبيل المثال: الشّاب الذي ذهب إلى أحد حكماء الصّين ليتعلَّم منه سرّ النّجاح وسأله "هل تستطيع أن تذكر لي ما هو سرّ النجاح؟ فرد عليه الحكيم الصيني قائلا: "سرّ النّجاح هو الدّوافع"، فسأله الشّاب: ومن أين تأتي هذه الدّوافع؟ فردَّ عليه الحكيم: "من رغباتك المشتعلة"، وباستغراب سأله: وكيف تكون عندنا رغبات مشتعلة؟ وهنا استأذن الحكيم الصّيني لعدّة دقائق وعاد ومعه وعاء كبير مليء بالماء وطلب من الشّاب أن يقترب من وعاء الماء وينظر فيه، فنظر الشّاب إلى الماء عن قرب وفجأة ضغط الحكيم بكلتا يديه على رأس الشّاب ووضعه داخل وعاء الماء ومرّت عدة ثوانٍ، بدأ الشّاب يشعر بالاختناق، وبدأ يقاوم بشدّة حتى نجح في تخليص نفسه وإخراج رأسه من الماء ثم نظر إلى الحكيم وسأله بغضب: ما هذا الذي فعلته؟ فرد عليه: ما الذي تعلمته من التجربة؟ فقال الشاب: لم أتعلم شيئا.

قال الحكيم: لا يا بني لقد تعلمت الكثير؛ ففي الثواني الأولى أردت أن تُخلِّص نفسك من الماء، ولكن دوافعك لم تكن كافية لعمل ذلك، وبعد ذلك كنت دائما راغبا في تخليص نفسك فبدأت في التحرُّك والمقاومة ولكن

ببطء حيث إن دوافعك لم تكن قد وصلت بعد لأعلى درجاتها، وأخيرا أصبح عندك الرّغبة المشتعلة لتخليص نفسك وعندئذ فقد نجحت.

ومن هنا وجب غرس الثقة في أنفسنا ثمّ استمداد القوّة منها إن أردنا بلوغ المأمول، وإلّا سنكون ضعفاء ولا شيء لدينا إلّا الأمنيات التي لا يمكن أن تصنع لنا مستقبلا. ولهذا لا ينبغي أن نغفل عن:

. تهيئة الاستعدادات النفسية والبدنية والمالية لما هو متوقّع ومأمول ولما هو غير متوقّع حتى لا تحدث المفاجأة.

. غرس الثقة في النفس؛ حتى يتم التمكّن من تحدي الصّعاب.

. تحديد الأدوار الواجب لعبها؛ لتحقيق الأهداف المحددة من قبل المجتمع أو مؤسساته أو هيئاته وجمعياته.

. غرس الثّقة في نفس الفرد وفي القيم الاجتماعية الموجبة.

. غرس الثّقة في أنفس الجماعة من خلال المشاركة الفعّالة في إعداد البرامج والمشاركة في تنفيذها والقيام بها.

. تنمية قدرات أفراد الشعب كلّه وغرس الثقة بينهم حتى يتمكّنوا من تحقيق أهدافهم الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والثقافية والنفسية والذوقية وفقا للخطط والاستراتيجيات المرسومة.

. تهيئة استعداد الأفراد والجماعات لما يجب والتطلّع بهم إلى ما يُحدث النقلة.

. غرس الثقة في أفراد الشعب من خلال مؤسّسات الدّولة، دون إغفال عن مشاورتهم فيما يتعلّق بهم من أمر، وأخذ وجهات نظرهم تجاه المستقبل الذي يأملونه أو يتطلعون إليه.

. تنمية قدرات الأفراد والجماعات مع مراعاة أصحاب الحاجات الخاصّة وتأهيلهم وتدريبهم ورعايتهم مع دراسة حالاتهم وتوظيفهم كونهم مفردة من مفردات المجتمع المستهدف صُنع مستقبله.

. تقوية الإمكانات المادّية وتدعيمها بالمعلومة والمعرفة الواسعة المساندة للتطوّر والتقدّم واستثمارها فيما يفيد.

. تحفيز أفراد الشعب على المشاركة الفعّالة، ودفع مؤسّسات الدّولة إلى الإقدام على ما يفيد وينفع خدمة وإنتاجا.

. استثمار الإمكانات البشرية والمادّية في تحسين أحوال الأفراد والجماعات وتحسين أحوال البيئة.

. إشعار أفراد المجتمع بأهمية المشاركة الاجتماعية في اتخاذ القرارات وتنفيذها وتقويمها من الانحراف.

. حث الأفراد على الاستفادة من الإمكانات المتاحة والبحث عن إمكانات أخرى أو إمكانات بديلة في حالة نقص الإمكانات أو شُحها، واستثمار ما يتوفّر منها إلى أقصى درجة ممكنة، تحقيقا لعمليات التغيير الموجب.

. تأكيد أهمية المشاركة ودورها في بناء الثقة بتحريض الأفراد على ممارستها من أجل تأكيد منطق (النّحن) المستوعب للأنا والآخر حتى تتضاعف القوّة ويزداد العطاء وتعم المكاسب ويتم نيل المأمولات.

. دفع الأفراد والجماعات وهيئات ومؤسّسات الدّولة إلى استيعاب الجديد والعمل على تطويره.

. الإصرار والتصميم على إزالة الشّكوك والمخاوف وكلّ ما من شأنه أن يجعل المواطن في حالة خوف أو قلق بأمل يحفّزه ويدفعه إلى المشاركة في صناعة المستقبل.

. تمكين الأفراد من إدارة شؤون حياتهم بإرادتهم الحرّة دون أيّ إكراه أو إجبار وغرس الثقة في أنفسهم وفي مقدرتهم على إدارة ما يتعلّق بهم من أمر مع إرشادهم لِما يفيد عمليات الاستثمار للإمكانات المتاحة، وتعريفهم بأساليب البحث عن البدائل كلّما دعت الضّرورة لذلك، ولهذا؛ فكلّ ما لم يكن مستحيلا ممكن، وكلّ مستحيل مثبت وهو الذي نعلمه ولا نعرفه، فعلى سبيل المثال:

. نعلم يوم الحساب ولكننا لا نعرفه ولا يمكن لنا ذلك.

. الشمس تشرق وتغرب ولن نستطيع تغيير أمرها أو تبديله.

. القمر تعكس الضوء ولن نستطيع إخفاء الضوء عنه.

. الموتى لا يعودون إلى الحياة ولن نستطيع إيقاف الموت عنّا.

. المستحيل مع أنّه موجود لا ينفى كغيره من الموجودات في دائرة الممكن؛ فعلى سبيل المثال: عندما يكون اليوم السبت فإن الأحد سيأتي غدا وفقا لعلمنا، ولكن عندما يقع المستحيل فقد لا يأتي الأحد واليوم الغد الذي يحتويه. إنّه الشيء الخارج عن دائرة الممكن وفق حساباتنا وقدراتنا واستعداداتنا وطاقاتنا؛ ولذا فكل من الممكن والمستحيل يحدثان وفقا لتوقعاتنا، ولكن الممكن يتحقق بأيدينا، والمستحيل ما لم تستطع أيدينا فعله، أي: المستحيل نتوقعه ولكن وقوعه من خارجنا، أما الممكن فنتوقعه ويحدث من داخلنا.

غير المتوقّع صُنع خوارق:

الممكن العظيم يحفّز أصحابه على تحدّي الصّعاب وتجاوز الحدود وبلوغ الخوارق، ومن هنا تولد المعرفة معارف، ذلك لأنَّ الخوارق ولّادة ما لم يكن بالحسبان، وبها يتمّ تجاوز المألوف والمحتمل في دائرة الممكن غير المتوقّع من خلال تحدي العقل البشري للكوابح والمعيقات، وهي نتاج المقدرة الذّهنية ذات الرّؤية الثاقبة للمشاهد والملاحظ بغاية التعرّف عليه وعلى القوانين التي هو عليها، وعلى الكيفية التي بها خُلق حتى التمكّن من معرفة المستحيل مستحيلا.

فالخوارق تُصنع وتُبدع كونها على غير سابقة معروفة، فمن بلغها اختراقا (تجاوز المألوف) وأظهر ما كان مجهولا أو مختفيا لحيّز المشاهدة والملاحظة فيضيف جديدا لميادين المعرفة الواسعة. فالخوارق لو لم تكن ممكنة ما كانت، ولأنّها في دائرة الممكن فهي ستتولّد خارقة ومن بعدها خوارق. وما الاستغراب الذي يصاحبها أو المفاجأت التي تلاحق وجودها إلّا بسبب كونها لم تكن متوقّعة.

والخوارق تُصنع لأنّها تأتي عن غير قاعدة مألوفة، وعن غير معتاد ولا متوقّع، ممّا يجعل علامات الاستغراب والاستفهام والتعجّب توضع عليها وعلى من اكتشفها أو جاء بها.

أمّا الصّنع فهو إظهار ما لم يكن ظاهرا، أو إيجاد ما لم يكن بين اليدين موجودا، أو إظهار الشيء الظاهر على غير ظهوره إبداعا، أو استخراج الشيء من الشيء بطريقة أو أسلوب غير معتادٍ ولا مألوفٍ.

والصّنع هو أن يتمّ الإتيان بما لم يسبق لأحدٍ قد أتي به، وهو نتاج التفكير المفتوح حيث لا سقف يحدّه ولا موانع تكبحه؛ أمّا الخارقة فهي بلوغ

ما لم يكن متوقّعا، والخوارق أعمال غير معجزة، أي: إنّها الممكِنة، ولكنّها غير عامّة؛ فهي تحتاج إلى مقدرة عقلية تتجاوز ما يمكن تدبّره إلى ما يمكن بلوغه كونه لم يكن مستحيلا ولا معجزا. والخارقة تقود أصحابها فكرا إلى الإبداع الممكّن من معرفة ما كان مستغربا مع أنّ آمله غير ذلك، كونه قد صاغ له تساؤلات وإن كانت بالنسبة إليه على غير عادة.

ومن ثمّ؛ فالأمل تحدٍّ يقود إلى العمل المبدع، والعمل المبدع بداية قد يصفه البعض بالمستحيل بالرّغم من تحقّقه مشاهدة وملاحظة؛ فالهبوط على القمر البعض كذّبه بداية، ولكنّه لم يصمد في تكذيبه لكونه أصبح حقيقة لا تخفى.

ومن ثمّ؛ فالصّعود إلى القمر يعد عملا من أعمال الخوارق التي بإمكان العقل البشري أن يبلغ ما هو أعظم منها، فالإنسان الذي خُلق في أحسن تقويم هو الإنسان المحقّق للخوارق وفقا لدائرة الممكن المتوقّع وغير المتوقّع، ولا استغراب ولا مفاجأة، بل الاستغراب ألا يرتقي عقل الإنسان إلى اقتناص الفكرة الممكّنة من الارتقاء وبلوغ الخوارق أملا.

وهنا، أقول:

الجنّة بين أيديكم؛ فاعملوا يا بني آدم من أجلها، فاغزوا الفضاء بكلّ الخوارق التي بإمكانكم العمل عليها والعمل بها؛ فبلوغ الجنّة غير مستحيل، بل المستحيل تعملوا ارتقاء من أجل بلوغها مأمولة.

وهنا لا أقول مواعظ، بل لِمَ لا نتعظ، ونتدبّر أمرنا؛ حتى نتمكّن من بلوغ الخوارق ارتقاء؟ ومن يرى غير ذلك فكأنّه لم يُخلق بصيرا، وليس له من الحواس ما يمكّنه من خَلق الخوارق وتجاوزها بخوارق أكثر ارتقاء؛ فمن يغفل عن ذلك فكأنّه قد غفل عمّا بنته الحواس وما ستبنيه من حضارات؛ فالتذكّر

يربط العقل بما أنجزته أيدي النّاس، وبما غفلت عنه، ليتدبّر حاضره، ويفكّر في مستقبل يستوجب رسم الخطط الممكّنة من الخوارق في دائرة الممكن.

وعليه: فالإنسان مؤهّل للارتقاء أملا وحسّا؛ فهو يتذكّر؛ ليتّعظ ويُصلح، ويتدبّر؛ ليبني وينتج، ويفكّر؛ لإيجاد خارقة بها يصنع مستقبلا راقيا، يَرتق الأرض بالسّماء.

ومن أراد أن يكون له شأن فليعمل على تحقيق المكانة قيما وفضائل، وإذا أراد أن يرتقي قيما وفضائل فليأخذ بمفاتيح العلم، ويبدأ إصلاح حاله من حيث هو، حتى يهيئ نفسه ويتأهب للعمل من أجل تحقيق ما ينبغي أن يكون عليه مأمولا.

فالارتقاء حركة دؤوبة، يتحقّق عبر التّاريخ بالجهد المبدع والعمل المتّصل، الذي منه تؤخذ العبر، وتستمدّ المواعظ، وتنقل التجارب النّاجحة شواهد؛ وهو لا يحدث فجأة؛ فهو مثل الوليد، يولد وهو في حاجة للرّعاية والعناية، ثمّ يكتسب قوّة تدفعه إلى تحقيق ما هو مأمول أعظم، وهو كالبناء بدايته وضع حجرة على الأرض، ثمّ يصبح صرحا شامخا وكأنّه يريد أن يفتق الأرض بالسّماء؛ فهكذا هو الارتقاء تطلّعا يجسّد الأمل والطّموح، ويمكّن من بناء حضارات أهلها يسودون ثمّ يفنون، وتبقى الحضارة تاريخا متكئا على الارتقاء علما وفكرا وقيما وفنّا وثقافة وأدبا وإعمارا وبناء.

ولأنّ التاريخ البشري مليء بالتّجارب النّاجعة، والفاشلة، فهو قد مرّ بنشوء حضارات سادت ثمّ بادت وحلّت محلّها حضارات أخرى؛ ففي تلك الأحقاب سادت حضارة عاد وثمود، ومن بعدها حضارات الغرب، وحضارة الفرس، وحضارة الإسلام والعرب، واليوم حضارات الشّعوب تتداخل لتسود القرية الصّغيرة؛ فهي بالرّغم من تنوّعها وكأنّها حضارة أمّة واحدة، إنّها تقدّر

الخصوصيّة، وتُمكّن من الاندماج علما ومعرفة، وتقنية وإعمارا، وتؤكّد قيمة الإنسان في ممارسة حقوقه، وأداء واجباته، وحمْل مسؤولياته وبكلّ شفافية.

ومع ذلك؛ فالإنسان دائما في حاجة للارتقاء؛ فهو يسعى من أجل حياة أكثر أمنا، وأكثر نعيما، وأكثر عدلا، وأكثر رفاهية ورقيّا؛ فقيمة الإنسان تستوجب تقديرا عاليا، ورعاية صحية متقدّمة، وتعليما يخلّص من أيّ تأزمات تحدث، ونُظم تُمكّن من التمدّد بكلّ حرّية دون أن يحدث أيّ تماسّ مع تمدّد المختلفين داخل حدودهم بكلّ حرّية.

ولذلك؛ فالاختلاف لن ينقطع بين النّاس بما أنّ هناك من يرى القيم والفضائل أساس العمل والتقدّم والارتقاء، ومن يراها لا تزيد على كونها قيودا ينبغي أن تزال متى ما تعارضت مع المصلحة الخاصّة، ومع وجود الاختلاف فلا وجود لما يعيق ولادة الخوارق، بل الاختلاف هو المحفّز تحدّيًا ومنافسة على ولادة المزيد من الخوارق تحدّيًا لكلّ الصّعاب.

ومن ثمّ؛ فالأمل في بعض الأحيان يتمركز على (الأنا) أنا ومن بعدي الطّوفان، وهنا تكمن العلّة، وحتى لا تكون الأنانية القاتلة فعلينا بتضافر الجهود والنّهوض معا حتى نقضي على عوامل الشّد والتخلّف ونرتقي تقدّما ونهضة من بعدها نهوض مع أملٍ ناهض.

وحتى لا تكون العلّة نهاية المطاف فينبغي بلوغ الحلّ الذي يحتوي في مضمونه قبول الآخر (هو كما هو)، والعمل معه (من حيث هو)، من أجل الارتقاء معا إلى مستقبل مأمول؛ فالفرد وإن خُلق فردا فهو لم يُخلق وحيدا، ولهذا، لا ينبغي أن يفكّر وحيدا، ولا ينبغي أن يعيش وحيدا، بل ينبغي أن يفكّر حتى يعرف كيف يفكّر جماعيًا، وأن يعمل مع الآخرين ارتقاء بغاية ما يجب.

ولكي يتمكّن الإنسان من اتخاذ قراره عن وعي فعليه بمعرفة العلاقة التي تربط قوّة قراره بقوّة اتخاذه؛ فقوّة القرار تكمن فيما يحقّقه من فوائد، وما يترتّب عليه من ارتقاء مأمول، وما يحدثه من مفاجآت موجبة، ومن ثم؛ فاتخاذ القرار ارتقاء يُمكِّن من إحداث النقلة وبلوغ المأمول ثمَّ تجاوزه إلى ما يمكّن من بلوغ الخوارق.

ولأن صُنع الخوارق لم يكن مستحيلا فَلِمَ لا تُصنع باستمرار تحدّيًا للعقل بملكاته العقلية؟ فالعقل دائما مَكمن الخوارق؛ فمن بلغ عقله عقلا عن غير توقّع بلغ المعجز إعجازا، ومن بقي في دائرة المتوقّع فلا إمكانية لبلوغ الخوارق التي في النّهاية لا تكون إلّا في دائرة الممكن غير المتوقّع.

ولكن لكي تصنع الخوارق فهي في حاجة لمناخ مناسب، حيث لا قيود على التفكير الإنساني ولا موانع ولا تخويف من أحدٍ، بل المكتبات مليئة بالمصادر والمراجع والدّوريات العلمية، والمقرّرات المدرسية والجامعية معدّة على قاعدة كلّ شيء ممكن ولا استغراب، ثمّ إنّها تحرّض المتعلّمين على التحدّي وقهر الصّعاب. وإلى جانب ذلك فالتحفيز يسرّع من إدارة العجلة تجاه التقدّم وإحداث النُّقلة وإيجاد ما لم يكن متوقعا.

وعليه:

. بلوغ الخوارق مُمكن فلا تستغرب.

. فكّر فيما تفكّر فيه حتى تبلغ خارقة.

. لا تستسلم للمتوقّع وتغفل عن غير المتوقّع الذي يخرجك من زمن المفاجآت.

. لا تُوقِف تفكيرك عند حدود المألوف؛ فالتوقّف عند حدوده لا يمكّنك من بلوغ الخوارق إضافة معرفيّة.

. لا خارقة إلّا بمقدرة عقلية، فانتبه لنفسك ولما حولك ولما يجب حتى ولو تجاوزت المألوف بما هو موجب.

. الخوارق يتمّ اكتشافها بين الفجأة والانتباه، فانتبه واعلم أنَّ السّرحان مضيعة للوقت؛ فلا تعوّد نفسك وعقلك الخوض فيه.

. اكتشاف الخوارق أو بلوغها يُمكّن من معرفة قوانينها تاليا، أي: إنّ الخوارق تكتشف أوّلا ثمّ بعد الاكتشاف يتمّ التعرّف على القوانين التي هي عليها.

. معرفة الخوارق تمكّن العقل من التحدّي والبحث عن المزيد.

. معرفة الخوارق تقهر المألوف، وقد تقضي عليه، ولا مخاوف.

. معرفة الخوارق تمكّن من معرفة المعجز تسليما.

. معرفة الخوارق تمكّن من معرفة المستحيل والوقوف دونه مستحيلا.

. صُنع الخوارق لا يكون إلّا تجاوزا للقولبة والتمنهج وأساليب الرّتابة المملّة.

. صُنع الخوارق يظهر أو يوجد ما لم يكن ظاهرا أو موجودا معرفيًّا.

. صُنع الخوارق صور تُنتج على غير هيئة مسبقة.

. يعد استخراج الشيء من الشيء على غير مألوف خارقة عقلية.

ولهذا ينبغي أن يعوّد الإنسان نفسه على الأخذ بالمنهج العلمي ويفضّل أن يتجاوزه معرفة بما هو أكثر تيسيرا حتى وإن كان نتاج وقته، وعليه بقبول الصّعاب والعمل على تحدّيها حتى تُهزم، ويتم من بعدها التمكّن من بلوغ الخوارق.

المستحيل معجز لا يلحقه الممكن:

إنّه ما ليس بيد البشر، وغير ممكن الحدوث على أيديهم؛ فلا يُفعل من قِبلهم، ولا إمكانية لبلوغه، ولكن لو لم يكن ما كنّا، ولأنّه كائن؛ فلا إمكانية لتجاوزه، ولا إمكانية للقفز عليه وكأنّه لا وجود. إنّه الحائل بين الممكن النّسبي (كلّ ما هو بيد المخلوق) وبين الممكن المطلق الذي لا وجود للصّفر فيه وهو لا يكون إلّا بيد الخالق.

فالمستحيل لا يكون إلّا حيث لا تكون الإمكانية، وهو ليس بالصّعب؛ فالصّعب يمكن بلوغه في دائرة الممكن غير المتوقّع، أمّا المستحيل؛ فلا إمكانية حيث وجود الصّفر بداية ونهاية.

والمستحيل لا يُوجِدْ نفسه ولا يخلقها، بل لا بدّ من خالق من ورائه، إنّه القوّة التي لا تكون إلّا بيد القوي، الذي لا يُفعل المستحيل إلّا بأمره. ومع ذلك؛ فالمستحيل أمر في ذاته، حيث يقف المخلوق عند حدّ لا يدرك من بعده شيئًا سوى الوجود الذي لا يكون إلّا بفعل الفاعل الذي جعله وجودا؛ فالفاعل لو لم تكن بيده القوّة المطلقة ما كان المستحيل فعلا مستحيلا.

فالكون لو لم يكن عملا مستحيلا ما كان انفجاره أو فتقه عظيما، ومع أنَّ المستحيل شيء يتحقّق، فإنَّه لا يوصف بشيء، أي: لو لم يكن المستحيل شيئا ما تحدّثنا عنه، ولأنّه شيء ونتحدث عنه فهو يشغلنا حيرة تدفعنا تجاه معرفة مَن وراءه؛ فنحن نقف عاجزين أمام توصيف المستحيل الذي مهما تدبّرنا أمره؛ فليس لنا إلّا التسليم، الذي يقرّ بوجود واجد له، ولا يكون إلّا أعظم منه؛ ومن ثمّ فلا يوجد شيء، أو يخلق لو لم يكن من ورائه خالق.

ومن هنا، افترق البعض القليل من النّاس مع البعض العظيم؛ فالقليل منهم وقف عند معجزة المستحيل في ذاته، أمّا الأعظم من النّاس فلا يؤمنون بعظمة المستحيل إلّا بعظمة فاعله المطلق الذي خلقه حائلا لا يخترق.

ولأنَّ المستحيل نتاج طاقة وقوّة؛ فهو فعل يُفعل؛ فينتج عملا قابلا للملاحظة والمشاهدة، ولأنّنا نقف أمام المستحيل عاجزين فَلِمَ لا نقف أكثر عجزا أمام الفعّال له؟

فعلماء الفيزياء اكتشفوا أنّ الكون يتمدّد متسارعا وهم عاجزون عن إيقافه، بل هم عاجزون عن قياس سرعة تمدّده، كما أنّهم عاجزون عن معرفة نقط صفر النّهاية التي سيتوقّف عندها، ومع ذلك يرى البعض أنّ الكون يتمدّد متسارعا، ولا شيء وراء تمدّده متسارعا، أي: لا إله من ورائه، وكأنّه تمدّد بلا غاية.

ومع ذلك أجمع علماء الفلك والفيزياء على أنّ للكون نهاية، وليس له بدّ إلّا بلوغها، وهي الانكماش أو التجمّد أو الانفجار الذي ينهي تمدّده المتسارع يوقفه عند حدّه، أو يكون سببا في إعادة تشكيله من جديد، أو كما نرى نحن إعادة رتقه مع الأكوان الأخرى التي سبق وأن فُتقت لتعود إلى حالتها الطبيعية التي خُلقت عليها عوضا عن الحالة التي أصبحت عليها طِباقا.

وبما أنّ الفيزيائيين واثقون من نهاية الكون؛ فالسؤال:

من الذي وضع له نهاية؟ ثمّ كيف وضع الكون لنفسه حدّا وهو لم يصل إليه بعد؟

أقول:

كلّ ما قيل في هذه الخصوصية ليس حكمًا علميًّا، بل مجرّد آراء لا تتعدّي نظرات أصحابها الذين انبهروا بما رأوه من مستحيلات حتى ظنوا أنّها

الخالق؛ وهم بهذه النظرة كمن لا يميّز بين الخالق وما خَلق. ولكن، وفقا لقاعدة المستحيل المؤسّسة على خَلق الشيء من لا شيء؛ فلا شيء إلّا ومن ورائه مشيء، وسيظل الأمر كلّ شيء من ورائه مشيء حتى بلوغ المستحيل الذي لم يكن من ورائه إلّا المستحيل الذي يؤدّي بالواعين إلى التّسليم.

ومثلما يكون وراء كلّ شيء شيء كما هو حال بني آدم الذين هم من نطفة، وآدم من تراب؛ فكذلك يكون وراء كلّ مستحيل يشاهد ويلاحظ مستحيل لا يمكن مشاهدته ولا ملاحظته، مع أنّه يُدرك استحالة؛ فالمستحيل كفعل يتحقّق عملا؛ فهو: مثل خلق الكون، والحياة والموت والشّروق والغروب، أمّا المستحيل كذات فلا يتجسّد في شيء يمكن أن يكون من ورائه شيء آخر؛ فيصبح التسليم به إعجازا حيث لا شكّ في وجوده، والمستحيلات تتحقّق بين أيدي النّاس في كلّ جزئية من الزّمان والوقت ولا أحد يستطيع إيقافها أو الحدّ منها. ولذا؛ فمعرفة المستحيل تُمكّن من معرفة مستحيلات أعظم حتى بلوغ المستحيل مستحيلا.

الممكنُ ارتقاء:

الارتقاء مكانة يُمكن أن يكون الإنسان عليها خَلقا، ويمكن أن يكون عليها قيمة لا تُبلغ إلّا بمزيد من الجهد العقلي والخُلقي، وفي المقابل هناك من يرى الارتقاء تطوّرا يطرأ على الكائنات الحيّة؛ فيغيّر حالتها من دُنيا إلى عُليا، من خلال ما يطرأ عليها من تغيّر في الجينات والسّمات؛ ولكنَّ الجينات الخَلقية لم تكن نتاج تكيف بيئي حتى تتبدّل وتتغيّر مع تغيّر البيئات، بل هي خاصّيّة خَلقيّة تحافظ على الأجناس، حتى وإن بلغ الإنسان من العلم ما بلغه؛ فلا إمكانية له أن يغيّر الأجناس، وستظل الكائنات على ما هي عليه مختلفة، وإن

لُعب بها جينيّا، ولكن تحسين وتجويد أنواعها أصبح في دائرة الممكن بين متوقّع وغير متوقّع ارتقاء حتى النّهاية.

ولأنَّ الإنسان في دائرة الممكن بين متوقّع وغير متوقّع؛ فهو مؤهّل لأن يرتقي إلى ما هو أفضل قيمة، ولأنّه كذلك فالأمل لا يفارقه، ولهذا؛ فهو يبحث من أجل بلوغ القمّة التي لا تُبلغ إلّا بالمزيد العلمي والمعرفي، والعمل المنتج، وإصلاح ذات البين، وتحدّي الصّعاب بكلّ ما يمكّن من قهرها.

فالكائنات التي يظنّ البعض أنّها متطوّرة نعتقد أنّ التطوّر يستوجب إرادة تمكّن من اتخاذ قرار من وسط مجموعة بدائل، وهذه الخاصيّة غير متوفّرة عند الكائنات التي لم تُخلق في أحسن تقويم، ولذلك فالكائنات قابلة لأن تتغيّر، وفقا لقاعدة التكيّف بأسباب الضّرورة الطبيعية، وحتى إن دُرِّب منها ما دُرّب أو عُلّم؛ فهو لن يتطوّر كما هو حال الإنسان وارتقاؤه؛ فالإنسان خُلق متميّزا بخصائص وصفات الارتقاء التي لم تكن من خصائص وصفات بقية الكائنات.

ولذلك؛ فالإنسان في دائرة الممكن ارتقاء يتذكّر ما يؤلم وما يفرح، ويؤهّل حاله عن تدبّر بما يمكّنه من العمل المنتج، وفي ذات الوقت يفكّر في كيفيّة تمكّنه من بلوغ ما يجب أن يكون أفضل وأجود وأكثر ارتقاء.

ومع أنَّ الإنسان ارتقاء خُلق في أحسن تقويم، فإنَّه بعلّة المعصية والشّهوة والرّغبة قد انحدر هبوطا منذ خلقه الأوّل، ومع ذلك منذ تلك اللحظة التي قُبلت فيها توبته، ظلّ آدم ومن بعده بنوه على الأمل في حاضرهم، ومع أنّه الأمل في الزّمن الحاضر، فإنَّه يتعلّق ارتقاء بما هو ماضٍ (تلك الجنّة التي خُلق فيها آدم)، وهو ما لم يتحقّق بعد.

ولذلك؛ فالتطوّر يمكن أن يكون خاضعا للمشاهدة مثل الإعمار وبناء الحضارات، وهذه من خاصيّة الإنسان التي لا يشاركه فيها غيره، ومن هنا، يُصبح الارتقاء في دائرة الممكن يستوجب بحثا علميّا مضنيا، وجهدا ينجز وفقا للأهداف المحدّدة والأغراض التي من ورائها والغايات المأمول بلوغها قمّة. وفي المقابل يمكن أن يكون التطوّر خاضعا للملاحظة مثل السّلوك وما يطرأ عليه من تغييرات مقصودة، وهذه تشترك فيها كلّ المخلوقات بما فيها من خُلق في أحسن تقويم.

فالإنسان في دائرة الممكن، ارتقاؤه القيمي يُرسّخه قيمة في ذاته، قيمة تستوجب مزيدا من الاحترام والتقدير والاعتبار، وذلك بما يفسح له مجال العدل الممكّن من العلم، والعمل، والتملّك، والتمدّد إلى النّهاية دون أن يكون له تمدّد على حساب الآخرين.

وهنا؛ فالممكن ارتقاء هو المتاح تذكّرا وتدبّرا وتفكّرا، وهو ما يمكن بلوغه قدرة واستطاعة، وهو ما لم يكن مستحيلا حتى وإن كان صعب التحقّق، وهو الذي ليس له وجود لو لم يسبقه وجود خَلق ونشوء، ومع ذلك وجوده لا يعدّ إن لم يلاحق الخَلق والنشوء ارتقاء.

ولأنّه الممكِن ارتقاء؛ فهو بين متوقّع وغير متوقّع؛ فالمتوقّع منه هو الذي بحدوثه، لا تحدث المفاجأة، ولا الاستغراب، ولا توضع علامات التعجّب. أمّا غير المتوقّع فهو الذي لا تتوافر معطيات حدوثه بين أيدي النَّاس، ومع ذلك يقع، ممّا يجعله في حالة تساوٍ نسبي مع المتوقّع في دائرة الممكن، ولهذا، إذا ما حدث غير المتوقّع حدثت المفاجأة أو التعجّب والاستغراب.

فغير المتوقّع يقع أو يحدث دون قراءات أو حسابات سابقة، أو نتيجة قصور في القراءات والحسابات السابقة على وقوعه، ممّا يجعله يقع (هو كما هو) إثباتا. ومن هنا، ينبغي أن يتمَّ التعرُّف على غير المتوقّع وعلى علله

ومسبّباته لاحقا ليتمَّ التعرُّف على نقاط الغفلة، أو القصور التي لم تؤخذ في الحسبان المتوقّع.

وعليه:

ينبغي أن تُرسم الخطط والسياسات والاستراتيجيات وفقا لدائرة الممكن التي تحتوي ما هو متوقّع موجبا وما هو متوقّع سالبا، وما هو غير متوقّع موجبا، وما هو غير متوقّع سالبا.

وبما أنَّ الممكن ليس مستحيلا؛ فعلى الإنسان أنْ:

. يفكّر فيما يفكّر فيه قبل أن يقرّر ويعمل.

. يخطّط لما هو غير متوقّع مثلما يخطط للمتوقّع.

. يعمل ارتقاء بلا تردّد ولا يأس، حتى يُرتَقَ الممكن بالمستحيل قمّة.

. يقبل تحدّي الصّعاب؛ فالصّعاب تُقهر، ولا مستحيل في دائرة الممكن، ولا استغراب، بل الاستغراب ألا يتمّ تحدَّ الصّعاب التي تحول بين الإنسان وبين ارتقائه قمّة.

وبالتّالي فمن يرسم الخطط والاستراتيجيات ويعدّ البرامج وفقا لِما هو متوقّع عليه أن يعرف أنَّ ما يفكّر فيه معرّض لمواجهة غير المتوقّع، ممّا يلفت انتباهه إلى التفكير في غير المتوقّع بخطط بديلة تواجه ما يمكن مواجهته من مواقف أو أضرار أو مخاطر قد تحدث، ولذلك فالزّمن الحاضر هو زمن التخطيط والتدبّر والتذكّر والتفكّر، وهذا يعني أنّ دائرة الممكن هي التي ينصهر فيها الزّمن حاضرا، أي: أنّ التذكّر الذي يرتبط بما هو ماضٍ لا يكون إلّا في الوقت الحاضر، وكذلك التفكّر الذي يتعلّق أمره بما لم يتحقّق بعد لا يكون إلّا في الوقت الحاضر، وفي ذات الوقت يتدبّر الإنسان أمره وكأنّه لا يعيش

الزّمن إلّا حاضرا. أي: إنّ الذي يتذكّر في دائرة الممكن لا يجب أن ينظر لما يتمّ تذكّره من الماضي وكأنّه لن يتكرّر، بل ينبغي أن يراه وكأنّه الآن يواجهه تحدٍّ، ممّا يجعله في وقته الحاضر متحدّيا له بحلولٍ حاسمة، وهكذا، ينبغي أن يفكّر فيما يمكن أن يواجهه مغالبة، حتى لا يحدث وتحدث المفاجآت المؤلمة التي تؤدّي إلى الانتكاسة أو الانحدار، بدلا من أن تؤدّي إلى بلوغ القمّة المأمولة ارتقاء.

فالممكن احتمالا يسبق ما يمكن أن يكون محتملا أو غير محتملٍ، ولهذا؛ فلا يتحقّق الممكن إلّا في دائرة الحاضر، حتى وإن أصبح ذلك المتحقّق في دائرة الزّمان مسجّلا؛ فالممكن المتوقّع وغير المتوقّع في زمنه الحاضر يسبق حدوث الفعل، ومن ثمّ، يظل الممكن تحت الانتظار إلى أن يتحقّق أو لا يتحقّق، ومن هنا، يصبح للممكن مصادق تثبت حدوثه أو تبطله.

فالممكن في زمنه الحاضر يُلاحق العبر والمواعظ، ويتزامن مع التدبّر، ويسبق المأمول حتى يتمّ بلوغه ارتقاء؛ ففي الزّمن الحاضر لا انتظار لشيء يعود إلّا استدعاء ذاكرة، ولا انتظار لشيء يأتي وهو لم يكن شيئا، ولا شيء يحدث إلّا في الزّمن الحاضر.

وبما أنَّ في دائرة الممكن لا وجود للمستحيل، إذا؛ فمن الممكن التفكير في المستحيل حتى معرفته مستحيلا، وعندها يدرك الإنسان أنّه في حاجة لمزيد من الارتقاء، ومع أنَّ الإنسان يتوقّع ما هو ممكن، فإنَّه قد لا يستطيع تحقيقه بأسباب قصور قدرته ومحدودية إمكاناته، وبالرّغم من ذلك فعليه أن يعمل مع من يمكّنه من الارتقاء تحدّيًا؛ فالصّعاب لا تصمد أمام التحدّي.

ولهذا؛ فالإنسان يتذكّر ويتدبّر ويفكّر في كلّ ما من شأنه أن يُظهر له ممكنا، ويمكّنه من إنجازه، أو تحقيقه بغرض الارتقاء إلى ما هو غاية.

وبما أنَّ كلّ شيء ممكن فلِمَ لا نفكّر فيه بلا قيود؟ حتى وإن وضعت عليه القيود علّة بأيّة علّة؛ فيجب أن تفكّ العلل مع القيود، ولكن إن لم تفكّ العلل والقيود فعلامات الاستفهام والاستغراب وأفعال المواجهة ستكون ارتقاء في الميادين والشّمس في كبد السّماء. ولذلك؛ فالاستغراب يَحدث عندما يَحدث غير المتوقّع في الزّمن الذي ينتظر فيه ظهور المتوقّع، وهنا تكمن المفاجأة التي لا تظهر إلّا بغفلة عمّا هو غير متوقّع.

ومع أنَّ في دائرة الممكن يتساوى حجم المتوقّع مع غير المتوقّع، ولكن تظل دائرة الممكن واسعة؛ فمهما فكّرنا فلن نبلغ كلّ ما نفكّر فيه؛ فعلى سبيل المثال: البحث عن العمل، لو لم يكن ممكنا، ما كان البحث عنه، ولهذا؛ فالبحث عن العمل ممكن، والحصول عليه ممكن، وعدم الحصول عليه ممكن أيضا. ولكن إذا قُدِّمت لك الإهانات التي لم تكن في الحسبان، وأنت تبحث عن فرصة عمل كما قُدِّمت إلى محمَّد أبو عزيزي بمدينة سيدي أبو زيد بتونس الذي كان الأمر بالنّسبة له غير متوقّع، وذلك في مقابل ما اتخذه من فعل (الإحراق) الذي لم يكن هو الآخر متوقّعا من قبل الذين قدّموا له الإهانات، ممّا ترتّب على الفعلين غير المتوقّعين فعل ثالث غير متوقّع، ألّا وهو الثورة، التي لم تطفأ نارها إلّا بسقوط نظام الرئيس التونسي زين العابدين بن على من قمّة السُلّم السّلطاني.

إنَّ العلاقة بين المتوقّع وغير المتوقّع هي علاقة قاعدة واستثناء؛ فحيثما كانت القاعدة كان الاستثناء متلازما معها، ومن هنا، يجب التفكير وفقا للقاعدة دون الغفلة عن الاستثناء، ومن يغفل عنها فليس له إلّا المزيد من المفاجآت[3].

[3] عقيل حسين عقيل، منابع الأمل، مكتبة الخانجي، القاهرة، ص138 . 146.

الأمل ممكن:

الأمل بحث عن مكانة، والمكانة يُمكن أن يكون الإنسان عليها خَلقا، ويمكن أن يكون عليها قيمة لا تُبلغ إلّا بمزيد من الجهد العقلي والخُلقي، وفي المقابل هناك من يراه تطوّرا يطرأ على الكائنات الحيّة؛ فيغيّر حالتها من دُنيا إلى عُليا، من خلال ما يطرأ عليها من تغيّر في الجينات والسّمات؛ ولكنَّ الجينات الخَلقية لم تكن نتاج تكيف بيئي حتى تتبدّل وتتغيّر مع تغيّر البيئات، بل هي خاصّيّة خَلقيّة تحافظ على الأجناس، حتى وإن بلغ الإنسان من العلم ما بلغه فلا إمكانية له أن يغيّر الأجناس، وستظل الكائنات على ما هي عليه مختلفة، وإن لُعب بها جينيّا، ولكن تحسين وتجويد أنواعها أصبح في دائرة الممكن بين متوقّع وغير متوقّع ارتقاء حتى النّهاية.

ولأنَّ الإنسان في دائرة الممكن بين متوقّع وغير متوقّع، فهو مؤهّل لأن يرتقي إلى ما هو أفضل قيمة، ولأنّه كذلك فالأمل لا يفارقه، ولهذا؛ فهو يبحث من أجل بلوغ القمّة التي لا تُبلغ إلّا بالمزيد العلمي والمعرفي، والعمل المنتج، وإصلاح ذات البين، وتحدي الصّعاب بكلّ ما يمكّن من قهرها.

فالكائنات التي يظنّ البعض أنّها متطوّرة، نعتقد أنّ التطوّر يستوجب إرادة تمكّن من اتخاذ قرار من وسط مجموعة بدائل، وهذه الخاصيّة غير متوفّرة عند الكائنات التي لم تُخلق في أحسن تقويم، ولذلك؛ فالكائنات قابلة لأن تتغيّر، وفقا لقاعدة التكيّف بأسباب الضّرورة الطبيعية، وحتى إن دُرِّب منها ما دُرّب أو عُلّم؛ فهو لن يتطوّر كما هو حال الإنسان وارتقاؤه؛ فالإنسان خُلق متميّزا بخصائص وصفات الارتقاء التي لم تكن من خصائص وصفات بقية الكائنات العاجزة عن صنع أمل يغيّر أحوالها.

ولذلك؛ فالإنسان في دائرة الممكن ارتقاء يتذكّر ما يؤلم وما يفرح، ويؤهّل حاله عن تدبّر بما يمكّنه من العمل المأمول إنتاجا، وفي ذات الوقت يفكّر في كيفيّة تمكّنه من بلوغ ما يجب أن يكون أفضل وأجود وأكثر ارتقاء.

ومع أنَّ الإنسان ارتقاء خُلق في أحسن تقويم، فإنَّه بعلّة المعصية والشّهوة والرّغبة قد انحدر هبوطا منذ خلقه الأوّل، ومع ذلك منذ تلك اللحظة التي قُبلت فيها توبته، ظلّ آدم ومن بعده بنوه على الأمل في حاضرهم، ومع أنَّه الأمل في الزّمن الحاضر، فإنَّه يتعلّق ارتقاء بما هو ماضٍ (تلك الجنّة التي خُلق فيها آدم)، وهو ما لم يتحقّق بعد.

ولذلك؛ فالتطوّر يمكن أن يكون خاضعا للمشاهدة مثل الإعمار وبناء الحضارات، وهذه من خاصيّة الإنسان التي لا يشاركه فيها غيره، ومن هنا، يُصبح الارتقاء في دائرة الممكن يستوجب بحثا علميّا مضنيا، وجهدا ينجز وفقا للأهداف المحدّدة والأغراض التي من ورائها والغايات المأمول بلوغها قمّة. وفي المقابل يمكن أن يكون التطوّر خاضعا للملاحظة مثل السّلوك وما يطرأ عليه من تغييرات مقصودة، وهذه تشترك فيها كلّ المخلوقات بما فيها من خُلق في أحسن تقويم.

فالإنسان في دائرة الممكن، ارتقاؤه القيمي يُرسّخه قيمة في ذاته، قيمة تستوجب مزيدا من الاحترام والتقدير والاعتبار، وذلك بما يفسح له مجال العدل الممكّن من العلم، والعمل، والتملّك، والتمدّد إلى النّهاية دون أن يكون له تمدّد على حساب الغير.

وهنا؛ فالممكن ارتقاء هو المتاح أملا وتذكّرا وتدبّرا وتفكّرا، وهو ما يمكن بلوغه قدرة واستطاعة، وهو ما لم يكن مستحيلا ولا معجزا حتى وإن كان صعب التحقّق، وهو الذي ليس له وجود لو لم يسبقه وجود خَلق ونشوء، ومع ذلك وجوده لا يعد إن لم يلاحق الخَلق والنشوء ارتقاء.

ولأنّه الممكِن ارتقاء فهو بين متوقّع وغير متوقّع؛ فالمتوقّع منه الذي بحدوثه لا تحدث المفاجأة، ولا الاستغراب، ولا توضع علامات التعجّب. أمّا غير المتوقّع فهو الذي لا تتوافر معطيات حدوثه بين أيدي النَّاس، ومع ذلك يقع، ممّا يجعله في حالة تساوٍ نسبي مع المتوقّع في دائرة الممكن، ولهذا، إذا ما حدث غير المتوقّع حدثت المفاجأة أو التعجّب والاستغراب.

فغير المتوقّع يقع أو يحدث دون قراءات أو حسابات سابقة، أو نتيجة قصور في القراءات والحسابات السابقة على وقوعه، ممّا يجعله يقع (هو كما هو) إثباتا. ومن هنا، ينبغي أن يتمَّ التعرُّف على غير المتوقّع وعلى علله ومسبّباته لاحقا ليتمَّ التعرُّف على نقاط الغفلة، أو القصور التي لم تؤخذ في الحسبان المتوقّع.

ولأنّ الممكن ارتقاء يُمكّن من تحدّي الصّعاب فَلِمَ لا يتهيأ الإنسان إليها قوّة تدبّر حتى يقهرها إرادة، ممّا يجعل التهيّؤ للعمل لا مكان فيه للتردّد في نفس المتهيئ لأدائه، ولذلك فمن يتوقّع أنَّ أداء العمل ميسَّر؛ فلا يستغرب إن واجهته صعاب تحول بينه وبين تنفيذه.

فالتهيّؤ في دائرة الممكن هو ارتقاء لأداء العمل الموجب، وكذلك هو ارتقاء لمواجهة ما يمكن أن يكون من فعل سالب؛ فكما تُرسم الخطط لتنفيذ العمل فهي تُرسم لمقاومة المعيقين له، ومتى ما بلغ الإنسان التهيؤ إرادة، بلغ القناعة المحفّزة والدافعة إلى تنفيذ العمل ومواجهة ما يعيقه من صعوبات، ولذلك؛ فالذين يتهيّأون إلى ارتكاب أعمال التطرُّف بإرادة في معظم الأحيان هم يُقْدِمُون على تنفيذها دون تردّد، والذين يقاومون أعمال المتطرفين بإرادة هم الآخرون يقدمون على مقاومتهم ومقاتلتهم بكلّ قوّة، أمَّا أولئك الموظّفون الذين تُصدر لهم أوامر تنفيذ التطرُّف، أو أوامر مقاومته؛ فلن يكونوا فاعلين، بل ستكون أيديهم على الزّناد مرتعشة ، وهنا يوجد مفتاح.

إذن: فمن تهيّأ واستعد لعملٍ وأقدم عليه ليس بالأمر الهين أن يتهيّأ لِما يُغيّره عن الاستمرار فيه، إلّا إذا فكّر وتذكّر وقَبِلَ إرادة أنَّ المعلومة في دائرة الممكن المتوقّع وغير المتوقّع، لا تُصحح إلّا بالمعلومة الحاملة للحُجَّة، ومن هنا؛ فكلّما توفَّرت الأفكار والحُجج تجاه القضية الخارجية مثار الانتباه والاهتمام كانت استجابة التهيّؤ للحدث أسرع، وكلّما تضاءلت الأفكار أو انعدمت كانت عملية التهيّؤ متباطئة لحين استجماع الأفكار عن الحدث الخارجي الذي يُودّ الوقوف عليه.

ولذا؛ فالتهيّؤ للقول يؤدّي إلى الاستعداد لأنّ يقال بإرادة، وكذلك التهيّؤ للعمل يؤدّي إلى الاستعداد لأن يُفعل بعد تأهّب.

ومع أنَّ الممكن ارتقاء لا استحالة فيه، ولكن إن لم يعقب التهيؤ استعداد فلا إمكانية، حيث لا إرادة، ولذلك؛ فإنّ غياب الإرادة يغيّب كلّا من التهيؤ والاستعداد، ومن ثمّ، تقوى درجة الاستعداد المترتّبة على الإرادة والتهيّؤ بقوّتهما وتضعف بضعفهما.

ومع أنَّه لا إمكانية للارتقاء بلا إرادة، ولا تهيؤ، ولا استعداد، وحتى وإن اجتمعت في دائرة الممكن تظلّ منقوصة ما لم يتمكّن الإنسان من التأهب لأداء العمل وبلوغ الارتقاء قمّة.

فالتأهّب يؤجج في النّفس حرارة الاندفاع تجاه الهدف دون خوف مع إصرار على الإنجاز، ومن يتأهّب للشيء بعد تهيّؤ وإرادة واستعداد يستطيع في دائرة الممكن ارتقاء أن يُنفِّد ما يشاء، وكيفما يشاء، ومتى ما يشاء في مشيئة الله.

ولأنّ لكلّ فعل ردّة فعل، إذن: فمن يتأهّب لأداء الفعل ارتقاء لابدّ أن يكون متأهّبا لما يترتّب عليه من ردّة فعل، وإلّا سيفاجأ بما هو مؤلم.

وحتى لا تحدث المفاجأت في كلّ مرّة؛ فأخذ الحيطة والحذر ضرورة لمن شاء أن يتدبّر أمره بلا عِلل، ولكن هذه ليست الغاية، بل الغاية أن تسود الحياة بين النَّاس بلا مغالبة، ولا هيمنة، ولا حرمان، ولا تمدّد على حساب الآخرين، ولا اتكالية على الغير، ومن هنا تصبح الغاية هي: تجاوز الحلّ المتجاوز للإصلاح وإن كان إصلاحا مساندا.

ولذلك؛ فالغاية من بعد الحلّ هي بلوغ المكانة الممكّنة من بلوغ رفعة الشّأن، وعيش النّعيم، وهذه مع أنَّها غايات، فإنَّها ستظل في دائرة الممكن ارتقاء بين متوقّع وغير متوقّع، والعاملون عليها هم وحدهم يتهيؤون لها، ويستعدون إليها، ويتأهبون لحسم الأمر، ثمّ يفعلون ويعملون حتى يبلغوا الغايات ونيل المأمولات من بعدها رفعة.

الممكن ارتقاء:

الممكن ارتقاء قيمة تفضيلية خصّ الله بها الإنسان خَلقا وخُلقا؛ فهو في خَلقه كان في أحسن تقويم، أمّا في خُلقه فينبغي أن يكون على الفضائل الخيّرة والقيم الحميدة التي أمر بها الخالق، وفضّلها النَّاس، {أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ}[4].

ومن هنا؛ فالفرق كبير بين تلك الزّواحف ومكبّة الأوجه، وبين من يمشي سويّا (مقوّما)؛ ذلك هو أمر الخالق؛ فلا يتبدّل، أمّا المتبدّل فهو الأخلاق التي هي بيد المخلوق.

ولذا؛ فلا إمكانية لتلك المخلوقات أن تتطوّر وترتقي كما يظنّ البعض لتصبح غير زاحفة، أو غير مكتبة الأوجه. وفي المقابل يمكن للإنسان الذي

[4] الملك 22.

يمشي سويّا أن ينحدر خُلقا؛ فيضل ويظلم ويعتدي بغير حقّ، ومع ذلك فلن ينحدر خَلقا.

وهذا ما حصل مع الإنسان الأوّل (آدم) الذي خُلق في أحسن تقويم، ولم يُخلق على الكمال، إنّه الإنسان بين التسيير والتخيير الذي (يصيب ويخطئ)، وبين هذا وذاك يستغفر؛ فيتاب عليه، ومن ثمّ؛ فمخالفة أبينا آدم هي مخالفة تخييريّة ذات علاقة بالإرادة والرّغبة والشّهوة، وهذه مكامن العلل والضّعف النّفسي التي تجرّ لما لا ينبغي (للمخالفة) كما تجرّ لما ينبغي (الطّاعة والاتباع)، ولذلك؛ فحسن التقويم لا يتغيّر، أمّا حُسن الأخلاق في دائرة الممكن؛ فيتغيّر بين سُفلية وارتقاء.

ولأنَّ الأخلاق لا تخرج عن دائرة الممكن المتوقّع وغير المتوقّع رُقيّا؛ فلا استغراب أن يحدث الخطأ، بل الاستغراب ألّا يصحّح ولا يقوّم، كما صحّحه أبونا آدم وقوّمه ساعة حدوثه، وساعة كشف علله، {فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ}[5]. ذلك لأنّ الكلمات الصّائبة تصحّح الأخطاء الواقعة، وهذه تتعلّق بارتقاء الأخلاق، ولا تتعلق بالخَلق الذي لا يتبدّل.

ومن ثمّ؛ في دائرة الممكن المتوقّع وغير المتوقّع لا بدّ أن يقع الإنسان في الخطأ، أمّا الاستثناء في دائرة الممكن ألا يُصححه، ولهذا أخذ أبونا آدم بالقاعدة، وهي: متى ما وقع الخطأ وجب التصحيح الذي يوجب تصحيح المعلومات الخاطئة بالمعلومات الصّائبة.

وعليه:

[5] البقرة 37.

فالارتقاء قيمة خُلِقَ الإنسان عليها من طين الجنّة عندما كانت الأرض مرتقة في السّماوات، {أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا}[6]. ولأنّ الإنسان الأوّل خُلق من تراب الأرض المرتقة في السّماء جنّة، كان خلقه في أحسن تقويم، {لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ}[7].

ولذا؛ فأساس خلق الإنسان التقويم الحسن دلالة ومعنى وصورة، أمّا الاستثناء فهو ألا يحافظ الإنسان على حُسن التقويم الذي خُلق عليه خلقا. وهذا ما حدث مع أبينا آدم عندما لم يأخذ بما أُمِرَ به وهو: ألّا يأكل من تلك الشّجرة، {وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ}[8].

ومن هنا، جاء انحدار أبينا آدم عوضا عن الارتقاء الذي خُلق عليه خلقا. {ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ}[9]، حيث الهبوط على الأرض التي فتقت من السّماوات؛ فأصبحت أرضا دنيا إذا ما قورنت بما بقي في علوٍ (في السّماء). ولكن آدم الذي خُلق على حُسن التقويم تدارك أمره فاستغفر ربّه؛ فتاب عليه، {فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ}[10]. ولهذا؛ فقد استثنى آدم من الوجود السُفلي كونه تاب الله عليه بسبب استغفاره ورُقي إيمانه، {إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا}[11].

---

[6] الأنبياء 30.

[7] التين 4.

[8] البقرة 35، 36.

[9] التين 5.

[10] البقرة 37.

[11] التين 6.

وعليه:

فالإنسان الأوّل (آدم) كونه قد خُلق في أحسن تقويم؛ فتقويمه الخَلقي لم يتغيّر، بل الذي تغيّر هو عدم أخذه بما يبقي الأخلاق ارتقاء، وذلك حينما أخذ بما يغوي، وهو: المنهي عنه، (ألا يأكل من تلك الشّجرة)؛ فحاد آدم عن الخُلق الذي هو بيده تخييرا، ولكن لم يحد عن خَلقه المقوّم تسييرا، حيث لا إمكانية له في ذلك.

فالارتقاء خَلقا سيظل باقيا ومميّزا لبني آدم، ولن يتطوّر أكثر من حُسن التقويم، وكذلك لن ينحدر عنه؛ فهو الخَلق الذي لا يتبدّل كونه بيد الخالق، أمّا المتبدّل؛ فهو: الذي بيد المخلوق، وهي: الأخلاق، ومن هنا، أكل آدم من تلك الشّجرة، حيث الرّغبة والإغواء المزيّف للحقيقة، وهو الذي شوّه الأخلاق انحرافا.

ارتقاء الخَلق الآدمي:

ولأنَّ الخَلق بيد الخالق فلا تخيير، ولأنّه لا تخيير فسيظل من خُلق مكبّ الوجه مكبّا، وسيظل الزّاحف زاحفا، وسيظل من يمشي سويّا على قوامه في أحسن تقويم، ومن ثمّ؛ فسيظل القرد قردا، والإنسان إنسانا، والسّمك سمكا.

ونظرا لأهمية الإنسان في الوجود الخلقي جاء خَلقه من عجلٍ قال تعالى: {خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ}[12]، والعجل هو الشيء الذي نجهله صفة، وندركه شيئا؛ فقوله: (من عجلٍ) أي: من شيء مميّز، ولم يقل: (على عجلٍ) أي: لم يقل (على تسرّعٍ)؛ فالخالق تعالى يخلق بالأمر لا بالجهد، ولهذا؛ فخلقه لا تسرّع فيه، ولأنّه لا تسرّع، قال: {لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ}[13].

---

[12] الأنبياء 37.

[13] التين 4.

مع العلم أنّ العَجل في كلام أهل حمير يعني: الطّين. وهذا المعنى ينسجم مع قوله تعالى: {وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ}[14]؛ والسّلالة، هي: النّوعيّة الرّاقية من طين الجنّة حيثما كانت الأرض مرتقة مع السّماوات في علاها. وذلك، لأنّ خَلق الإنسان لم يكن على الأرض الدُّنيا، بل كان خَلقه على الأرض قبل أن تُفتق، ويُهبط بها دُنيا، ولهذا؛ فالسّلالة تدلّ على أصول الخلق الآدمي من تراب الأرض المرتقة في السّماوات حيث رُقي طين الجنّة.

ومن هنا؛ فسلالة خَلق الإنسان خاصّة به، والسّلالة تعني الجودة الرّاقية ذات الخاصيّة المتميّزة (جنس ونوع)، ولذا؛ فلا عجل، ولا عبثية في خَلق الإنسان الذي خُلق من طين الجنّة، والذي جودته تصلصل ارتقاء، {وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ}[15].

ولأنّ الإنسان الأوّل (آدم) قد خُلق في أحسن تقويم؛ فهو من حمإ مسنون، (من مادّة ذات جودة عالية) حيث لا شائبة، ومن ثمّ؛ فلا طين يماثلها؛ فالطّين الذي خُلق منه الإنسان من صلصال (أرقى أنواع الطّين).

فخُلق الإنسان مُفضّلا على جميع المخلوقات بما فيها الملائكة والجنّ. {وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ}[16].

ولأنّ الإنسان هو المفضّل خَلقا؛ فعلّمه الله نبأ ما لم يعلمه الملائكة، {وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ

[14] المؤمنون 12.

[15] الحجر 26.

[16] البقرة 30.

الْحَكِيمُ قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ}[17].

ولأنّ خلق آدم كان أكثر ارتقاء من غيره، سجد الملائكة له طاعة لأمر الله، {وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا}[18]، أي: بأسباب الخَلق ارتقاء والنّبأ العظيم الذي تلقاه آدم من ربّه، سجد الملائكة له طاعة للنبأ الذي أنبأه الله به.

ولأنَّ الجنس الآدمي هو المفضّل ارتقاء، كان آدم نبيّا للملائكة والجنّ والإنس جميعا، (قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ). فلمّا أنبأهم سجد الملائكة إِلَّا إِبْلِيسَ (أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ). وإلّا هل هناك من يشكّ في أنّ الذي سجد الملائكة له لم يكن على الارتقاء مفضّلا؟

أمّا الخَلق الثاني: فهو الخلق المؤسّس على النّطفة (الماء الدّافق) {خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ}[19]. وهذا الخلق هو الخَلق التزاوجي، الذي يختلف عن ذلك الخلق المصلصل، ممّا جعل السّلالة الثانية تختلف عن السّلالة الأولى؛ فالسّلالة الأولى: من طينٍ لازب، والسّلالة الثانية: من ماءٍ دافق ومَهين، {ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ}[20].

ولأنّ الإنسان خُلق على الارتقاء؛ فينبغي أن يكون عليه قمّة وكأنّه كبد الكون، {لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ}[21]، أي: خُلق الإنسان على المحبّة؛ فينبغي أن يكون عليها كبدا، تتألم مع من يتألم، وتأمل الخير مع من

---

[17] البقرة 31 . 33.

[18] البقرة 34.

[19] النحل 4.

[20] السجدة 8.

[21] البلد 4.

يأمله، وتعمل في دائرة الممكن المتوقّع وغير المتوقّع على تحقيقه، وكذلك ينبغي أن تسعد مع من يسعد، وتسعى استقامة واعتدالا ولا مظالم؛ فتجمع ما تفرّق من أجل إعادة قيمة الإنسان وحفظ كرامته، وما يؤدّي به إلى الرّفعة والارتقاء.

ارتقاء الأخلاق:

تعدّ الأخلاق نتاج القيم الحميدة، والفضائل الخيّرة، التي تستمدّ من الأديان والأعراف ارتقاء، بها يرتقي الإنسان قولا وفعلا وعملا ومعرفة وسلوكا من أجل علاقات اجتماعية وإنسانية مؤسّسة على نيل التقدير والاعتبار.

فالإنسان أساس خلقه الارتقاء (في أحسن تقويم) وغايته الارتقاء خُلُقا إلى ما يجب، ومع أنّ الأخلاق بيد النَّاس، فإنَّ البعض يخسرها بلا ثمن.

ولذلك؛ فالإنسان الأوّل قد خُلق من تراب الجنّة؛ وظل على خَلقه سلالة بشرية تمتدّ بين طينٍ لازب وماء دافق، ولا انحدار عن الخَلق المقوّم ولا تطوّر من بعده؛ فالإنسان هو الإنسان. ولكن الانحدار والتطوّر في دائرة الممكن هو بين متوقّع وغير متوقّع؛ فآدم وزوجه خُلقا في الجنّة من تراب الجنّة، ومع ذلك تعرّضا لإغواءٍ جعلهما على حالة من الانحدار عن القيم، حيث عدم التزامهما بالأمر النّاهي عن الأكل من تلك الشجرة، {فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ}[22].

إذا؛ فالبقاء في الجنّة بقاء فضائل خيّرة وقيم حميدة، فمن لا يكون عليها لا يكون فيها، فحتى آدم عليه الصّلاة والسلام الذي خُلق في الجنّة

[22] البقرة 36.

خَلقا، أُهبط به على الأرض الهابطة إلى الحياة الدّنيا، وذلك بأسباب معصيته وميله لوسوسة من أغواه شهوة.

ولأنّ الأخلاق يتمّ تشرّبها فضائل خيّرة؛ فبعد أن تلقّى آدم كلمات من ربّه ترشد إلى التي هي أقوم تاب الله عليه، {فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ}[23]، ومع ذلك صدر الحكم عليه والأرض ومن عليها من المخالفين أن يهبطوا من علوٍ وارتقاء إلى سُفليّة ودونية، {قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا}[24].

ولأنّ الهبوط كان نتاج الانفتاق العظيم فهو خروج من الجنّة، حيث ظلّت الجنّة في العلو رُقيّا، وظلّ آدم ومن معه من المخالفين والعصاة (الإنس والجن) يحيون الحياة الدّنيا على الأرض الدّنيا، وفي المقابل بقي الملائكة الطّائعون في علو الجنّة ارتقاء، ولا يتنزّلون إلى الأرض الدّنيا إلّا تنزيلا لأداء مهمّة تربط أمرا بين السّماء والأرض، نحن نجهله، {لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذن رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ سَلَامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ}[25].

ولأنّها الأرض الدّنيا، وحياة المخالفين والمختلفين عليها مملوءة وسوسة وإغواء، إذا؛ فلا إمكانية لأن تكون فيها الحياة آمنة مستقرّة لو لم تتنزّل الرّسالات والأنباء الواعظة والنّاهية والآمرة والمحذّرة والمنذرة والمبشّرة بما هو أمل يشبع حاجة ويرضي رغبة، وذلك من أجل علاقات إنسانية تنظّم أساليب الحياة ارتقاء وتلفت المختلفين إلى ما يؤدّي إلى الاتعاظ، ويمكّنهم من إحداث النُّقلة وبلوغ القمّة.

---

[23] البقرة 37.

[24] البقرة 38.

[25] القدر 3 . 5.

فأنزلت الرّسالات تأمر وتنهى، {وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ}[26]. بمعني: يجب أن يكون الإنسان على الأخلاق الكريمة أينما كان، سواء كان آدم وزوجه في الجنّة ارتقاء، أم أصبحا وبنوهما على الأرض انحدارا، غير أنّ الحياة العليا بعد تلك الإغواءات قد جُرّدت من النقائص والحاجات التي أثّرت انحدارا على الإنسان الأوّل (آدم) ومن شاركه في المعصية أو حرّضه عليها، وأصبحت الحياة هناك ارتقاء كاملا.

أمّا بعد الهبوط فَالفتن لم تنته، بل تكاثرت مع التزاوج والتكاثر، فالصّدامات والخصومات بين أبالسة وشياطين الإنس والجنّ استمرّت بلا انقطاع، ومع ذلك فإنَّ بقاءها في الحياة الدّنيا هو بغاية الاتعاظ وأخذ العبر من ذلك الإغواء الذي كان سببا في هبوط المخالفين من الحياة الرّاقية إلى الحياة الهابطة.

ولأنَّ مخالفة آدم وزوجه لِمَا نهى الخالق عنه (الأكل من تلك الشّجرة قد أخرجهما من الجنّة)؛ فظلّ هذا الدّرس شاهدا على ما يمنع بني آدم من أن يدخلوا الجنّة. أي: بما أنّ تلك المخالفة قد أخرجت آدم وزوجه من الجنّة، إذا؛ فكيف لبني آدم من دخولها؟

أقول:

قال تعالى: {مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ}[27].

---

[26] البقرة 190.

[27] الأنعام 160.

ولأنّ أمر الهبوط كان أمرا حاسما لمخالفة جرت في الجنّة؛ إذا: ألا يعدّ أمر الهابطين أمرا حاسما في عدم الدّخول إليها؟ وهل من مخرج من هذه الأزمة، ومعظم الخَلق لهم من المخالفات ما لهم على الانحدار والدّونية؟

أقول:

قال تعالى: {قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا}[28].

ولأنَّ الدّين مصدر الفضائل والقيم فلا إكراه فيه، وهذه عين الأخلاق؛ فمن شاء فليؤمن، ومن شاء فليكفر، ولذا وجب قول الحقّ وترك النَّاس أحرارا يختارون ما يشاؤون إرادة، ولكن إن حدث الانحراف وجب الإصلاح الذي يستوجب البدء مع المنحرفين من حيث هم (جهلا أو تعلّما)، وذلك من أجل بلوغ الإصلاح، أو بلوغ الحلّ ارتقاء.

ولأنّ الأخلاق ارتقاء هي أساس المعاملة الحسنة فالأخذ بها لا شكّ أنّه يجعل الإنسان على المحبّة بدلا من أن يكون على الإكراه الذي لا يترك إلّا ألما، {أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاس حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ}[29]. أي: فلا داعي أن يضيق صدرك يا نبي الله وأنت تعلم أنّ مشيئة الخالق هي الفاعلة، {وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا}[30]. لذلك، كان محمّد داعيا إلى سبيل الحقّ بالحكمة والموعظة الحسنة، ولا إكراه، وهذه عين الأخلاق ارتقاء؛ فالأخلاق تُعدّ قيمة ارتقاء في ذاتها، وهي عندما تتجسّد في السّلوك يصبح سلوكها قمّة. إذا؛ فمن أراد أن يكون قمّة؛ فعليه بالأخلاق الحميدة ارتقاء.

---

[28] الزمر 53.

[29] يونس 99.

[30] يونس 99.

ارتقاء آدم:

خَلق الله آدم في أحسن تقويم من غير أب ولا أم (من تراب الجنّة) حيث لا إنس من قبله، ولأنّه كذلك جعله الله على الارتقاء نبيًّا؛ فسجد له الملائكة طائعين، إلّا إبليس، ومع أنَّ آدم قد خُلق في الجنّة والأرض مرتقة في السّماوات، ولكن بمخالفة أمر الخالق أهبط به والأرض ومن كان سببا في إغوائه ومعصيته، وكذلك من قَبِلَ الإغواء معه معصية، وهنا تكمن العلّة التي دعت آدم ندما واستغفارا وتوبة، ولكنّ قرار الهبوط نافذ، {قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ}[31].

ومع أنَّ آدم تاب لربّه، فإنَّ توبته لم تَحُلْ بينه وبين الهبوط على ظهر الأرض إلى الحياة الدُّنيا بعد أن كان على أرض النّعيم قمّة وارتقاء؛ فآدم عصى ربّه، ثمّ تاب؛ فتاب الله عليه، ثمّ اجتباه نبيًّا، لِيُنبئ من بُعث إليهم نبيا، {ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى}[32]، ومن هنا يكمن أمل آدم في العودة إلى الجنّة ارتقاء؛ تلك الجنّة التي فقدها ولم يعد يراها نعيما على الأرض المغبرّة التي أهبط بها أرضا، ولكن كيف يعود آدم إلى ذلك النّعيم الوافر؟

لا سبيل له إلّا الاستغفار عن معصيته، والتوبة إلى خالقه؛ ففعل ذلك عن قلب؛ فاجتباه ربّه نبيًّا، وعلّمه ما لم يكن يعلم؛ فأدرك آدم أنّ فرصة العودة إلى الجنّة بعد توبته أصبحت ممكنة إن عَمِلَ وأتقن عمله رفعة.

ولذلك؛ فَمِن بعد آدم أصبح العمل هو الممكّن من إحداث النُّقلة وتحقيق الارتقاء رفعة؛ فتلك الجنّة التي خُلق فيها آدم لم يرها ابناه؛ فهما وُلدا في الحياة الدّنيا (السُّفلية)، ولكن إنباء أبيهما أصبح بينهما حُجّة وموعظة وعبرة؛ فبدأ العمل ارتقاء من أحدهما، وهو يأمل بلوغ ما أنبأه به أبوه الذي

---

[31] الأعراف 24.

[32] طه 122.

شهد ذلك النّعيم؛ فأخذ بالنبأ وأمل الارتقاء إلى النّعيم نصب عينيه، وفي المقابل أخوه أخذته الشّهوة انحدارا وسُفليّة؛ فقتل أخاه في الوقت الذي يبسط إليه أخوه يده محبّة، {لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ}[33].

وعليه:

فالارتقاء مؤسّس على الفضائل الخيّرة والقيم الحميدة، ارتفاعا عن كلِّ ما من شأنه أن يؤدّي إلى الانحدار والسُفليّة، وذلك من أجل بلوغ ما يُمكّن من إحداث النُّقلة الممكّنة من بلوغ الجنّة عيشا رغدا. ومن هنا، وجب العمل المحقّق للعيش النّعيم الذي فيه الوفرة تغذي الرّوح، وتطمئن النّفس، وتخاطب العقل، وترضي القلب، وتشبع البدن، وتزيد الذّوق رفعة وارتقاء.

فآدم خُلق في الجنّة، وشهد على نعيمها، وفيها تمتّعَ، ثم حُرم منها وأهبط به والأرض دُنوّا، ولكنّه لم ينس ذلك العيش الرّغِد، والوفرة التي لا تُحصى، والتنوّع المتّسع جمالا، وبخاصّة بعد أن أصبح على الأرض التي لم تأخذ أيّ صفة من صفات الجنّة سوى الماء الذي يبقي على الحياة، ولا يُبقي على النّعيم؛ فأصبحت الحاجة تملأ نفس آدم وزوجه بعد أن حُرما من مشبعاتها المنقوصة في الحياة الدّنيا.

إنّ الحياة الدُّنيا، إذا ما قورنت بتلك الحياة العليا فهي حياة الحاجات المنقوصة، وحياة الفتن والعداوات التي بدأت بين الأخوين (ابني آدم)، ثمّ اتّسعت وتكاثرت مع التكاثر؛ فأصبح الصّدام والاقتتال انحدارا من البعض،

[33] المائدة 28 . 30.

في مقابل ارتقاء البعض رفعة؛ فآدم الذي خسر ذلك الموقع الرّفيع أصبح يأمل العودة إليه، ولذلك؛ فقد سعى استغفارا وتوبة أهلّته لأن يكون نبيًّا ينبئ بما عُلّم به من قِبل خالقه، ومن ثمّ فلا مكان له بعد النبأ العظيم إلّا الجنّة، التي لا تبلغ ارتقاء إلّا بالعمل الصّالح.

ولذلك، أصبح العمل ارتقاء أمل المصلحين السّاعين إلى الكسب الحلال بلا حدود من أجل العيش الرّغد وإظهار الزّكاة وإعطاء الصّدقة (ضريبة وتبرّعا)؛ فالسّاعون ارتقاء مهما بلغوا من المراتب والقمم يأملون مراتب عظيمة من بعدها قمّة أعظم، ولهذا؛ وجب العمل إتقانا حتى الارتقاء بالأرض الدّنيا ورتقها في السّماء جنّة.

ومن أجل ذلك، وجب العمل الممكّن من بلوغ الأحسن والأرقى، شريطة ألّا يكون التحسّن على حساب إشباع حاجات الغير، بل ينبغي أن يكون العمل تُرسا من تروس عجلة الحياة العامّة، ذلك لأنّ الارتقاء الممكّن من السّعادة لا يمكن أن يتحقّق والغير يتألم، ولذلك؛ فالعمل وفقا لأهداف الحياة ينبغي أن يكون من ورائه غرض خاصّ، وهو: إحداث النُّقلة، وغرض عام، وهو: تحفيز الآخرين ودفعهم تجاهها، وإلّا فألم الغير لن يفسح الطريق أمام من يسعى إلى الارتقاء غاية.

ارتقاء بني آدم:

بنو آدم في دائرة الممكن هم بين متوقّع وغير متوقّع، أي: أنّهم بين متوقّع الارتقاء ومتوقّع الدّونية، ومن جهة أخرى هم: يتبدّلون حيث لا ثوابت؛ فمنهم من يبقى على الارتقاء، ومنهم من يتخلّى عنه، ومنهم من نراه في دونية، ولكن بعدها يبلغ القمم ارتقاء. ولذلك، ينبغي العمل مع بني آدم من حيث هم، من أجل الارتقاء بهم إلى ما ينبغي أن يكونوا عليه قمّة.

ولأجل بلوغ الارتقاء قمّة؛ فلا بدّ من سيادة الفضائل الخيّرة والقيم الحميدة بين بني آدم، تقبّلا، واحتراما، وتقديرا، واعتبارا، واستيعابا، وتفهّما، وتدبّرا، مع مراعاة البدء مع النَّاس من حيث هم، من أجل ما يجب أن يكونوا عليه ارتقاء.

فالارتقاء معمار ينبغي أن يُبنى لبنة فوق لبنة (قيمة فوق قيمة)، وهدفا فوق هدف، وغرضا فوق غرض، وغاية من فوقها غاية، ولكن في المقابل هناك من يهدم المعمار رأسا على عقب، وهناك من يهدّه لبنة بعد لبنة؛ فالصّراع بين بني آدم لن ينتهي بين البناة رُقيّا، وبين الهادمين له انحدارا، ما لم يضع الجميع نصب أعينهم أهدافا قابلة للإنجاز، من ورائها أغراض قابلة للتحقّق، وغايات يجب أن تُبلغ ارتقاء. ومع ذلك؛ فهذا الأمر لا يزيد على كونه أملا، وسيظل أملا، لأنّ الخالق خلقنا على الاختلاف وسنظل عليه مختلفين، {وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاس أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ}[34].

إنّ الاختلاف الذي خُلقنا عليه وسنظل عليه مختلفين قيمة، هو: اختلاف التنوّع المشبع للحاجات المتطوّرة عن رغبة وإرادة، ولكن هذا الإشباع لا ينبغي أن يكون على حساب ما يشبع حاجات الآخرين؛ ولذلك يجب أن تحدّد الأهداف والأغراض والغايات بعيدا عن كلّ ما من شأنه أن يؤدّي إلى الخلاف الذي فيه الاقتتال والفتنة، أي: ينبغي أن تحدّد الأهداف وفقا لما يجمع شمل المتفرّقين خِصاما، ويحلّ تأزّماتهم، ويشبع حاجاتهم المتطوّرة عدلا وارتقاء.

فمن أجل الارتقاء قمّة ينبغي الابتعاد عمّا يؤدّي إلى الاقتتال والفتن؛ فالاقتتال والفتن ضياع فرصة، والزّمن لا يعطي الفرصة مرّتين؛ فيجب عدم

[34] هود 118، 119.

إضاعة الفرص كلّما سنحت الظروف ارتقاء، ومن يضيعها سيجد نفسه على غفلة من أمره، وحينها لن ينفعه النّدم؛ فالنّدم عندما تضيع الفرص قد يؤدّي بأصحابه إلى الهاوية، ولكن إن كانت الفرص ما زالت سانحة فالنّدم يؤدّي إلى تصحيح المواقف الخاطئة بمواقف صائبة، أي: متى ما ضعف الإنسان انحدر غفلة، ومتى ما قوي ارتقاء تذكّر؛ فاتعظ واعتبر، ومتى ما تدبّر عمل وأنتج، ومتى ما فكّر حدّد أهدافا من ورائها أغراض، والغاية من ورائها قمّة.

ولذلك، وجب التدبّر بما يبعد بني آدم عن الجلوس على رصيف المتسوّلين؛ فالتسوّل يؤخّر أصحابه عن الالتحاق بركب من يحدِّدون أهدافهم وأغراضهم وغاياتهم بأمل تحقيق الرّفعة والارتقاء قمّة.

وفي المقابل لا ينبغي أن تجرّ العاطفة أصحابها إلى دعم مواقف المتسوّلين (الذين يتخذون التسوّل مصدرا للعيش)، بل العقل المتدبّر لأمره يجب أن يدفع أصحابه إلى ما يمكّن المتسوّلين من المشاركة في العمل المنتج، الذي يحفّزهم على تنمية قدراتهم، وتوجيهها وفقا لما يحقّق لهم الارتقاء نهضة ورفعة؛ فيخلّصهم من التسوّل إرادة وعملا، وكذلك لا ينبغي أن يضع بنو آدم أنفسهم في مواقف الاستعطاف، ولا ينبغي لهم الأخذ بالعاطفة فيما يؤسّس إلى ترسيخ الفضائل والقيم وبناء الدّولة؛ فرجالات الدّولة كلّما أخذتهم العاطفة أخّرتهم عن إنجاز الأهداف السّامية، والأغراض الرّفيعة، والغايات العظيمة.

فرجالات الدّولة ارتقاء هم من لا تأخذهم العصبيّة، ذلك لأنّ العصبيّة مقبرة الذين لا يعلمون؛ فرجالات الدّولة ارتقاء كلّما حكموا عدلوا، وكلّما قالوا صدقوا، وكلّما عاهدوا أوفوا، وكلّما كبروا تواضعوا، أمّا المدّعون لذلك فهم مع كلّ هبة ريح يميلون، وهنا تكمن علّتهم وعلّة الدّولة.

فالدّولة ارتقاء تستهدف رجالات بعينهم وفقا لما هم عليه من مكانة، ومع ذلك تخضعهم للتقييم قبل أن يتمّ اختيارهم إلى مناصب إداراتها، وكذلك

هم بعد الاختيار يقوّمون كلّما حادوا عن القيم والفضائل الخيّرة، بهدف إعادتهم إليها ارتقاء.

ومن ثمّ؛ فمن يرى نفسه رجل دولة عليه باختبار نفسه وتقويمها قبل أن يُختبر ويقوّم من قِبل الغير.

فبنو آدم سواء أكانوا رجالات دولة، أم مواطنين كراما هم يدركون أنَّ السّبيل إلى النّجاح هو: الارتقاء عن كلّ شيء يؤلم، أو يؤزّم العلاقات، أو يؤدّي إلى تفكّك اللحمة الاجتماعية، أو الوطنية، أو الإنسانية، أو يمسّ معتقدا دينيًّا.

ولكن من بني آدم من يجهل ويغفل؛ فيقع في فخّ مصيدة الغاوين والمزيّنين والمضللين التي تزداد ضيقا على رقاب من يقع في فخّها كلّما حاول أن يرى نفسه غير مختنقٍ.

ومع أنَّ للألم أوجاعا، وللتأزّم أوجاعا، فإنَّ أكثر الأوجاع بين بني آدم ما يتركه الغدر والخيانة من ألم، فآلام الغدر والخيانة لا تموت، حتّى وإن سامحك من أجرمت في حقّه؛ ولذلك وجب أخذ الحيطة والحذر، حتى لا يحدث الوقوع في فخّ المصيدة مرّتين.

أمّا الحقد بين بني آدم فهو مثل حطب نار جهنّم يحترق قبل أن يحرق غيره، أي: أنّ نار الحقد تحرق أوّل ما تحرق حطبها (الحاقدين)، ولذلك؛ فالحقد يُلهي الحاقد من بني آدم في نفسه، والحاقد في حقيقة أمره هو في حاجة لمن يطفئ عنه النّار التي بها نفسه تحترق. ومن ثمّ؛ فمن يعتقد أنّه إذا تمكّن من عضّ يد أحد وعضّها؛ فلا شكّ أنّ عضّ اليد يفكر الآخر في أنيابه إن لم تكن له مخالب.

ولذا؛ فإنّ الجهل والحقد والظّلم والعدوان والكيد والمكر عندما تشتعل نيرانها بين بني آدم؛ فلا سبيل لهم إلّا التخلّف، والانحدار، والسُفلية المؤلمة، وفي المقابل الشّعوب ترتقي علما ومعرفة وتسامحا وخبرة وتجربة؛ فتغزو الأرض سلاما، والسّماء بحثا وارتقاء.

فبنو آدم الذين بلا أمل لا يعدّون إلّا أمواتا وهم على قيد الحياة، والذين يأملون الارتقاء ولا يعملون من أجله سيبقون على أملهم وكأنّهم بلا أمل، أمّا البعض الذي يأمل ويعمل ويفعل فلا شكّ أنّه سيُسهم في إحداث النُّقلة ارتقاء، وفي المقابل هناك من يهدم وهو لا يعتقد أنّ الهدم سيقع على رأسه وكأنّه بلا رأس.

وهكذا، هناك من يصدّق كلّ ما يقال، ثمّ يحمّسه بين بني آدم مثلما يحمّس القمح في الحماس. ولذلك؛ فلا ينبغي أن يكون بنو آدم سماعين فيصدّقوا كلّ ما يقال، بل عليهم بالتذكّر اتعاظا، وعليهم بالتدبّر تحليلا وتفسيرا وتخطيطا وسلوكا وعملا، وعليهم بالتّفكّر من أجل ما يجب، حتى يتمكّنوا من الارتقاء من خلال ما يمارسونه من حقوق عن رغبة، وما يؤدونه من واجبات عن إرادة، وما يحملونه من مسؤوليات وهم متحمّلون كلّ ما يترتّب عليها من أعباء جِسام.

وعليه:

فارتقاء بني آدم مؤسّس على ما أخبرهم وأنبأهم به أبوهم آدم، ومن بُعث من بعده من الأنبياء والرّسل صلوات الله وسلامه عليهم ولهذا؛ فهم يأملون العيش في ذلك النّعيم المنبئ عنه، ولأجل ذلك فمن آمن منهم يسعى ويعمل من أجله ارتقاء، ومن لم يؤمن ستظل فُرصه على قائمة الانتظار ما بقي حيّا.

فبنو آدم من أجل تلك الجنّة التي وُصفت بما وُصفت به من عظمة، يصلّون لله من أجل بلوغها، ويصومون ويزكّون ويتصدّقون ويحجّون ويجاهدون بأموالهم وأنفسهم من أجل بلوغها، ولذلك هم يصلحون أحوالهم ويعفون ويصفحون من أجل بلوغها، ويتعلّمون ويعملون من أجل بلوغها، ومع ذلك؛ فهم في حاجة للمزيد المعرفي الممكّن من زيادة الارتقاء قمّة، وخير وسيلة لذلك المزيد من البحث العلمي والمعرفي في الكون المتسارع اتساعا وتمدّدا.

ولهذا؛ فالارتقاء قمّة هو: ما يمكّن بني آدم من العيش الرّغد في الحياة الدّنيا (الزائلة) وما يمكنهم من العيش السّعيد في الحياة العلية (الباقية)؛ فبنو آدم لا يقصرون أملهم على الحياة الزّائلة، التي يصرّون على أخذ نصيبهم منها، بل يربطون أملّ عيشهم فيها بأمل العيش في الحياة الدّائمة، ومن هنا؛ فهم يعملون ويسعون إلى بلوغ المزيد المرضي ارتقاء.

فالإنسان ينبغي أن يعيش والأمل لا يفارقه؛ فإن فارقه الأمل فلا معنى للحياة؛ فالله خلق أبانا آدم في النّعيم ليعيش هو وبنوه حياة النّعيم، ولكن بأسباب الإغواء والمعصية أفسد حياته الباقية بالحياة الزائلة (الحياة المنقوصة) حيث الفقر والألم والفاقة والمرض والتعرّض للمفاجآت والموت، ومع ذلك؛ وجب العمل الممكّن من بلوغ الحلّ رفعة وارتقاء.

ولسائل أن يسأل:

أيّ حلّ تعني؟

أقول: حلّ أزمة الحياة الدّنيا، التي تتطلّب العمل، بهدف النّهوض، وغرض الارتقاء، وغاية بلوغ القمّة (الحياة الباقية) حيث تُرتق الأرض في السّماء بعد أن فُتقت منها.

فيجب الإقدام على العمل المشبع للحاجات المتطوّرة بلا حدود لأنّ الحدود عوائق أمام التقدّم تجاه بلوغ الأفضل والأعظم. ولهذا؛ لا ينبغي أن يرتضي بنو آدم بالفقر؛ فالفقر مرض ينبغي القضاء عليه بالعمل المنتج؛ فلو عمل بنو آدم جميعهم لما وجد الفقر مكانًا له على الأرض، ولأنّهم لا يعملون جميعا سيظلون فقراء مهما استغنى منهم من استغنى.

ولذلك؛ فالغناء رحمة؛ والفقر أزمة ومواجع، ولأنّهما كذلك وجب على الأغنياء العمل إلى جانب ما يعملون ويجنون من مكاسب من أجل إزالة الألم عن الفقراء وتحويلهم إلى ميادين العمل المنتج ارتقاء.

فالغنى ارتقاء حقّ لا يكون إلّا نتاج العمل المرضي، أمّا الفقر فليس بحقّ، بل الفقر أوجدته أسباب وعلل ينبغي أن تزال. أمّا العجزة والقصّر؛ فحقوق عيشهم المرضي على كواهل العاملين من ذويهم، ولكن إن كان ذووهم يعيشون اتكالا على الغير؛ فالعيب لا شكّ أنّه سيلاحقهم ومن ورائهم سيلاحق المسؤولين في الدّولة.

إذا؛ فالارتقاء لا يمكن أن يكون على حساب الغير، بل يكون بجهودهم المشتركة حيث لا إقصاء ولا تغييب لأحد عن ممارسة حقوقه، أو أداء واجباته، أو حمْل مسؤولياته. وفي المقابل يحدث الانحدار والنّزول سُفلية لمن يتخلّى عمّا يجب التمسّك به حقّا وواجبا ومسؤولية.

ولذلك، ينبغي أن يعمل الجميع بهدف الاستغناء والحياة الرّاقية، وكلّما بلغ الجميع مستوى من العيش الرّفيع الرّغد وجب أن يفكّروا فيما هو أرفع وأرغد منه حتى تُرتق الأرض والسّماء بالعمل ارتقاء.

بنو آدم بين الارتقاء والدّونية:

كان خَلقُ آدم في أحسن تقويم خلقا مُميّزا بملكة الاختيار والتدبّر التي كلّما أُحسنت إدارة حفّزت على الأخذ بما يجب، وكلّما سِيئت إدارة حفّزت على الانحدار إلى المنهي عنه، وبين هذا وذاك، فآدم لم يحسن الاختيار المبقي على حُسن التقويم؛ فانحدر معصية مع انحدار شهوته ورغبته؛ التي جعلته على الهبوط إلى الحياة الدّنيا بعد أن كان في السّماء قمّة.

ولأجل الإيضاح:

هل خُلق آدم على الارتقاء خلقا، أم أنّه جُعل عليه جعلا؟

أقول:

لو جُعل آدم على الارتقاء جعلا لكان الارتقاء مستقلّا عنه وسابقا عليه، ولأنّه لا سابق على آدم ارتقاء؛ فهو المخلوق عليه خلقا، {لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ}[35]، ولأنّه خُلق على الارتقاء خلقا قال: (في أحسن تقويم)، وفي المقابل لو كان آدم قد جُعل على الارتقاء جعلا لقال تعالى: (على أحسن تقويم) وهو المأمول غير المتحقّق في ذات آدم خلقا، وهذا ما يخالف دلالة الحُسن التي خُلق فيها آدم خلقا.

ومع أنّ آدم قد خُلق في أحسن تقويم، فإنَّه انحدر إرادة ومعصية؛ فكان في سُفلية ودونية أمام خالقه، {ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ}[36]. ومع ذلك استغفر آدم ربّه فتاب عليه، ومن هنا، فتح الله باب التوبة لعباده الذين آمنوا

[35] التين 4.

[36] التين 5.

وعملوا الصالحات، {إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ}[37].

ومع أنّ آدم قد خُلق في أحسن تقويم، فإنَّه قد خسر ذلك الارتقاء بمعصية منه، ممّا جعله استغفارا يأمل الارتقاء عمّا انحدر فيه من سُفلية؛ فغفر الله له وتاب عليه بغاية الارتقاء إلى تلك المقامات العظام، ولكن الأمر لا يعدّ هينا؛ حيث لا عودة إلّا بالعمل الصّالح الممكّن من الارتقاء إلى تلك القمّة التي أصبحت أمل آدم بعد أن كانت بين يديه.

ولأنّ العمل ارتقاء يؤدّي إلى ما يُنقذ بني آدم من الألم، كما يؤدّي بهم إلى ما يُغرقهم فيه؛ فهم بين هذا وذاك بين ارتقاء فيه العمل يُتقن، وبين دُونية بها يُهمل وينحرف إلى ما لا يجب. ولذلك، كان الصّدق ارتقاء في مواجهة الكذب انحدارا، وكان العدل ارتقاء في مواجهة الظلم انحدارا، وهكذا كان الحقّ في مواجهة الباطل، والحرّيّة في مواجهة الاستعباد، والديمقراطية في مواجهة الديكتاتورية، والاستيعاب في مواجهة الهيمنة والإقصاء، وبين هذا وذاك يجب التحدّي بما يمكّن من الارتقاء قمّة.

ولأنّ بني آدم بين ارتقاء ودونية؛ فهم بينهما بين ما يرسّخ قيمة الإنسان رفعة ونهضة ومكانة، وبين ما يؤدّي إلى التخلّف والفاقة وتقليل الشأن.

ولذلك؛ فالعمل الصّالح ارتقاء لا يكون إلّا عملا منتجا ومتقنا ومبدعا ومرسّخا لقيمة الإنسان، وفي المقابل العمل الفاسد والرّغبة الفاسدة لا يكونان إلّا على حساب القيم الحميدة، وعلى حساب مصالح الآخرين ورغباتهم ومصائرهم وما يشبع حاجاتهم المتطوّرة والمتنوّعة، ومن ثمّ؛ فالعفّة والأمانة

[37] التين 6.

والنّزاهة وتحمّل أعباء المسؤولية ارتقاء، ستظل قيما في مواجهة تلك القيم المؤدّية بأصحابها إلى السُفلية والدّونية التي تتمركز على الأنا.

إذن: فالارتقاء لا يمكن أن يبلغه بنو آدم إلّا عدلا وعملا وعفوا وصفحا، وكذلك الانحدار لا يمكن أن يبلغوه إلّا ظلما وإهمالا وتشدّدا وتطرّفا، ولذا، في دائرة الممكن المتوقّع وغير المتوقّع؛ من شاء الارتقاء عمل من أجله ارتقاء، ومن شاء الانحدار عمل من أجله سُفليّة.

وعليه:

فآدم بعد أن خسر تلك المكانة القمّة، عمل على الارتقاء إليها ثانية، ولكن ظل الارتقاء إلى تلك القمّة من قبل بني آدم أملا وعملا؛ فمن يعمل صالحا يقترب منها، ومن يعمل باطلا يبتعد عنها؛ فالإنسان الذي خُلق على الارتقاء بداية، ثمّ انحدر عنه رغبة وشهوة، أصبح ثانية يسعى إلى العودة إلى القمّة، وهو يأمل أن تُرتق الأرض بالسّماء حتى يرى بأمّ عينه ما يأمله ارتقاء.

ولذا؛ فبنو آدم خُلقوا على الاختلاف وسيظلون به مختلفين، حتى أهل الوطن الواحد والدّين الواحد واللغة والثقافة الواحدة هم مختلفون؛ قدرات ومواهب واستعدادات وميولا واتجاهات، ولهذا؛ فهم مختلفون بصمة، ولا تناسخ بينهم فيما خلقوا عليه خلقا، ولكن بينهم تماثل فيما هم عليه من معرفة وعلم وحضارة واقتصاد وسياسة، وآداب، ومع ذلك؛ فالاختلاف بينهم لا يلغيه التماثل والتشابه، بل التماثل والتشابه بين بني آدم يؤكّد وجود الاختلاف بلا لبس ولا غموض.

ولأنّه الاختلاف؛ فهو المحفّز على البقاء تنوّعا، وهو المحفّز على التغيير الممكّن من التّعاون والنّهوض ارتقاء؛ فبنو آدم ارتقاء يعلمون أنّهم لم يجدوا نفسهم خلقا، بل خَلقَهم من هو أعظم منهم؛ فهم يعلمون أنّهم قبل الخَلق لم

يكونوا شيئا يُذكر، ثمّ أصبحوا شيئا مذكورا؛ فهم يعلمون أنّ مشيئة من ورائهم هي التي أرادت لهم خَلقا، ولهذا؛ فهم يدركون أنّهم قبل الخَلق لم يبلغوا مستوى الوجود الصّفري قيمة، ولكن مشيئة الخالق شاءت لهم أن يكونوا شيئًا؛ فكانوا شيئا وفي أحسن تقويم، {أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا}[38].

فبنو آدم لكونهم شيئا مذكورا يدركون مشيئة شاءت لهم أن يكونوا خَلقا وفقا لمشيئة هم لا يعلمونها، ذلك لأنّ المشيء وحده يعلم مشيئة خَلقه، أمّا المخلوف ارتقاء فلا يدرك إلّا وجوده مخلوقا. ومع ذلك؛ فهناك من يرى الوجود الكوني مخلوقا من غير خالق، وهنا تكمن العلّة المعرفية بين من يدرك أنّه لا مشيئة لمخلوق في خَلقه، وبين من لا يدرك ذلك بقوله: إنّ الكون خلق نفسه ولا خالق من ورائه.

ولأنّ بني آدم بين الارتقاء والدّونية فهم مختلفون رؤية ومعرفة وعلما، ولهذا؛ فهم بين معرفة وعلم يؤدّيان بهم إلى النّهوض قمّة، وبين جهل يؤدّي بهم إلى الانحدار دونية.

ولذلك؛ فالإنسان عندما ينهض يرتقي إلى ما يؤدّي به إلى رتق الأرض بالسّماء، وعندما ينحدر يهوي سُفلية في القاع، أي: عندما يرتقي يجد نفسه وكأنّه يحتوي الإنسانية في نفسه، ولكن عندما ينحدر يصبح عقله أشبه بعقل الحيوان، {فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ}[39].

أي: عندما ينحدر الإنسان ممّا هو عليه من عقل مدبّر لا شكّ أنّه يقترب إلى عقل القرد الذي هو في دونية إذا ما قورن بعقل من خلقه الله في أحسن تقويم؛ فمثل أولئك المنحدرين قيما هم مثل الحيوان الذي لا يتذكّر

---

[38] مريم 67.

[39] الأعراف 166.

فيتّعظ، ولا يتدبّر فيخطط، ولا يفكّر فيرتقي إلى ما يجب أن يكون عليه رفعة، ولهذا؛ فلا يليق بالعقل الإنساني أن يتشبه سلوكه بالعقل القردي، الذي متى ما انحدر إليه الإنسان أصبح لا فرق بينه وبين من هو في دونيّة، {وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ}[40].

[40] المائدة 60.

مراحل

الارتقاء الإنساني

مرحلة الفطرة:

الإنسان كغيره من المخلوقات خُلق على الفطرة مسيّرا بالرّغم من تميّزه وتفضيله، وفطرة الإنسان هي الولادة التي خُلق عليها، ولا تقليد يسبقه (كونه في زمن الخلق حيث لا وجود لمن يقلّد من).

ولأنّ الفطرة خَلقيّة فلا تبديل، أمّا التقليد فهو اتّباع، (اتّباع لاحق لسابق) وهو: المرتكز لأخذ الاقتداء بما يفيد بلا ضرر، أو أخذه بما يُفيد بضررٍ؛ فالأخذ بالقول الحسن والسّلوك الحسن يخلق القدوة الحسنة، والأخذ بالقول أو السّلوك السّيئ يخلق القدوة السّيئة، ولذلك؛ فالفطرة لا سيّئة فيها، أمّا التقليد ففيه من المساوي ما فيه، وهنا، تكمن العلّة التي تستوجب حذرا، وإلّا يصبح التقليد علّة.

والفطرة كونها خُلقيّة فهي سابقة على الدّين الذي ينظّم العلاقات بين الأفراد والأمم والشّعوب، وهو كما ينظّم العلاقات يضبط القول والفعل والسّلوك والعمل. أمّا الفطرة فلا تغيير، كلّ شيء وفق طبيعة خَلقه منظّم (سلوكه منظم) دون أيّ تطوّر، ودون أيّ ارتقاء؛ فسلوك النّحل وبيوت النّحل هي كما هي سلوك وبيوت، وهكذا سلوك الحيوانات والطّيور والأسماك لا تتغيّر عمّا هو فطرة، وذلك لأسباب تطابق التقليد مع الفطرة التي خُلقت عليها، أمّا الكائن العاقل فلا يتطابق تقليده مع فطرته حتى وإن تماثل في كثيره.

فالفطرة تدلّ على تطابق طبائع وسلوك المخلوق مع الطّبيعة التي خُلق عليها، ممّا يجعل الكائنات غير مخالفة لطبيعة خلقها؛ فلا الطّائر لا يطير، ولا

الأفاعي لا تزحف، ولا الإنسان لا يمشي سويّا. ولأنَّ التطابق بين الفطرة والخَلق هو لا تخيير فيه؛ فلا أحد يستطيع أن يغيّر الفطرة التي خُلقت المخلوقات عليها؛ فالجبال ستظل أوتادا في الأرض، والسّحب ستظل معلّقة بين السّماء والأرض حتى تتساقط مطرا، وهكذا الأنهار ستظل تجري إلى النّهاية، ولكن في دائرة الممكن ارتقاء تُغيّر مجريات الأودية، وكذلك تُزرع السّحب؛ فتتساقط مطرا، وتُخرق الجبال أنفاقا، ولكنّها لا تُلغى، وكذلك هو حال السّحب والأودية؛ فستظل وفقا للفطرة سُحبا تمطر وأودية تجري وجبالا أوتادا.

فالإنسان خُلق كغيره من المخلوقات على الفطرة، حيث لا تخيير في فطرته، بل التّخيير في معرفته التي تؤثّر على قوله وفعله وعمله وسلوكه (ارتقاء أم انحدارا). ومعظم الكائنات تقلّد ما فُطرت عليه إلّا الإنسان بإمكانه المخالفة؛ فالنّحل فُطِر على علاقات وسلوك وعمل لا يخرج عنه شيئا، ولهذا؛ ففراخ النّحل تقلّد آباءها سلوكا وعملا دون إضافة لما بلغه السّابقون منهم؛ فسلوك هذين الزّوجين من النّحل خلقا هو بالتّمام سلوك النّحل المتكاثر تزاوجا، وهكذا هو التقليد كما هو حال النّمل والطّيور والأسماك والحيوانات وغيرها من بقيّة الكائنات تكاثرا، إنّه السّلوك المتطابق مع الفطرة التي خلقت الكائنات عليها، إلّا سلوك الإنسان، ومعارفه، وثقافته، وعلمه؛ فهو قابل للتبدّل والتغيّر والتطوّر والارتقاء أو الدونية.

فالإنسان فُطر تسييرا فيما لا يملك قوّة لتغييره، وفُطر تخييرا على التقليد الذي بإمكانه أن يغيّره، أو يبدّله، أو يطوّره ارتقاء، أو أن ينحدر به سُفليّة، وهو بين هذا وذاك في دائرة الممكن المتوقّع وغير المتوقّع يتبدّل علما وثقافة ومعرفة وسلوكا وعملا.

ومع أنَّ حياة الإنسان وفطرته جاءت خَلقا، فإنَّه في دائرة الممكن يأخذ من الفطرة ما هو تقليدا؛ ففطرته تختلف عن بقية الكائنات التي جاءت حياتها وفطرتها على التطابق بالتّمام تقليدا؛ فالإنسان لم يأخذ بالفطرة كلّها، بل أخذ منها ما هو ممكن، وكذلك ترك منها ما هو ممكن، وفقا لاختياره وإرادته، ومن ثمّ؛ فلا تطابق بين فطرة الإنسان وتقليده.

فالإنسان يختلف عن الكائنات الأخرى تذكّرا، وتدبّرا، وتفكّرا، ومسؤولية؛ لأنّ المسؤولية لا تلحق إلّا من هو مخيّر، ممّا يجعل وجوب حُسن الاختيار لمن أريد به أن يكون مسؤولا، وإلّا ستكون الأعباء حملا ثقيلا على كاهل من لا يحسن اختياره.

فالاختيار، إن أُحسن تدبّرا أَحدث النُّقلة إلى ما هو أكثر ارتقاء، وإن لم يُحسن الاختيار فسيؤدّي بأصحابه إلى السُفليّة والانحدار والدّونية، ممّا يجعل السّلوك الانحرافي في حاجة للتقويم حتى لا تسود المفاسد والمظالم (هيمنة وحرمانا). ولذلك؛ فالتقليد بالنّسبة للإنسان لا يقيّده إلّا انعدام المقدرة والمعرفة والإرادة، ولذا؛ فإن كانت هناك مقدرة عالية يصبح التقليد عاليا، وإن كانت ضعيفة يصبح التقليد ضعيفا، وكذلك إن كانت الإرادة حرّة، فتحت كلّ السُّبل أمام الإنسان في دائرة الممكن سلبا أم إيجابا، وفي المقابل إن كانت الإرادة في حالة ضيق أو منعدمة؛ فلا يجد التقليد مجالا للامتداد.

ومن هنا؛ فالفطرة ارتقاء خَلق، خُلق الإنسان عليه تسييرا وتخييرا، فما هو تسيير؛ لا إمكانية للخروج عنه، وما هو تخيير عليه أن يتذكّر حتى يدرك المواعظ والعبر، وعليه أن يتدبّر ما يمكّنه من إشباع حاجاته المتطوّرة دون أن يتمدّد إشباعا على حساب مشبعات حاجات الغير، ثمّ عليه أن يفكّر فيما يحدث له النُّقلة، ويمكّنه من الارتقاء المأمول.

والاختلاف بين الفطرة والتقليد هو: أنَّ الفطرة لا تكون ما لم يكن الخَلق، أمّا التقليد فهو المرتبط بالسّلوك، ولذا؛ فالفطرة ليست هي الخلق، بل هي نشوء فيه، وهي الحالة التي تجعل المخلوق العاقل بين تسيير وتخيير؛ فما هو مسيّر لا إرادة فيه، وما هو مخيّر فالإرادة مركزة في ذهن العاقل، الذي بإمكانه أن يرتقي إن أحسن اختياره وتدبّره، ولكن إن لم يحسن اختياره وتدبّره؛ فلا سبيل له إلّا الانحدار الذي من بعده يكون النّدم والألم، وهما: إن ألما بالإنسان جعلاه في حاجة لمنقذ.

ومع أنّ التقليد على علاقة بالفطرة، فإنَّ هناك فرقا بين تقليد الإنسان وتقاليد الكائنات الأخرى؛ لأنَّ تقليد الإنسان هو بين تسيير وتخيير، أمّا تقليد الكائنات الأخرى فهو التقليد المسيّر حيث لا مجال فيه للتخيير، كما هو حال النّمل والنّحل وبقيّة الكائنات الأخرى في تنظيم علائقها (تقليد فطرة) لا تقليد تذكّر وتدبّر وتفكّر كما هو حال الإنسان ولهذا؛ فتقليد الكائنات تقليد مراوحة في المكان الواحد، أمّا تقليد الإنسان فهو تقليد البحث عمّا يُمكّن من إحداث النُّقلة إلى ما هو مأمول ارتقاء.

ومن ثمّ؛ فالفطرة تثبّت الطّبيعة التي خُلقت المخلوقات عليها هي كما هي، أمّا التقليد فيُثبّت سلوك العادة سواء أكانت عادة متطابقة مع الفطرة أم أنّها مختلفة عنها. أي: أنَّ سلوك الكائنات يتأثر سلبا وإيجابا بما ينسجم مع نواميس الطبيعة الخَلقيّة وما لا ينسجم معها؛ فالتقليد الفطري تقليد طبيعي يجسّد الحقيقة الخلقيّة، أمّا التقليد الخارج عن الفطرة فهو المخالف لنواميس الطبيعة، التي تؤثّر على غرائز المخلوق وحاجاته الضّروريّة؛ فعلى سبيل المثال: الإنسان عندما يعطش سيتوجّه إلى مصادر المياه ليروي ظمأه رغبة وإرادة وضرورة مُلحة، وهذا هو الأمر الطبيعي الذي يتوافق مع الفطرة، ولكن إن مُنع من ذلك فليس له إلّا قبول دفع الثّمن حتى النّهاية استجابة أو اقتتالا،

وهكذا إن جاع؛ فليس له إلّا التوجّه إلى مصادر إشباع الحاجة (حياة أو موتا)، ولذلك؛ فعندما تتطابق الفطرة مع التقليد تصبح الغرائز أكثر ضغطا على أصحابها، ولا إمكانية للتخلّص منها إلّا إشباعا أو القبول بدفع الثّمن.

ومن ثمّ؛ فالتوجّه للبحث عن مصادر بقاء الحياة تقليد يتوافق مع الفطرة، أمّا المقاتلة من أجل الحياة فهي تقليد؛ فلا يتوافق معها، ولهذا؛ فالكائن العاقل في دائرة الممكن المتوقّع وغير المتوقّع يتذكّر ويتدبّر ويفكّر بما يتطابق مع فطرته دون أن يقصر ذلك عليها؛ ممّا يدعوه أحيانا إلى ما هو ممكن تقليدا، أمّا بقيّة الكائنات فلا تُدبِّرَ أمرها إلّا تقليدا متماثلا مع الفطرة، ولذلك؛ فهي كمن يراوح في مكانه بلا أمل، حيث لا مستقبل تدركه سوى الفطرة التي خُلقت عليها بلا تخيير.

فالفطرة ليست بسلوك، بل هي طبيعة المخلوق التي خُلق عليها، والتي لا يمكن أن يخالفها في بعض الأحيان إلّا تخييرا، ولهذا؛ فالكائنات التي خُلقت على التسيير لا إمكانية لها أن تتجاوز ما فطرت عليه خَلقا؛ فهي كائنات تدرك وتسلك تقليدا، أمّا الكائن العاقل فيدرك تذكّرا وتدبّرا وتفكّرا، ثمّ يخطط ويعمل ويسلك، أي إنّ الكائنات يمكن أن تُعلّم، أمّا الإنسان في دائرة الممكن يتعلّم. ومن هنا؛ فالفرق كبير بين التعلّم والتعليم؛ فالتّعلّم تهذيب سلوك أو تغييره، أمّا التعليم فإنتاج معرفة وتطويرها، حيث إمكانية تحديد الأهداف التي من ورائها أغراض، والغايات التي من ورائها نهضة وارتقاء.

فلو عُدنا لخلق الإنسان الأوّل (آدم) فلا نجد له تقليدا؛ لأنَّ التقليد لا يكون إلّا لسابقٍ، ولأنّه لا سابق لآدم من جنسه حتى يقلّد ما سبقه عليه من سلوك أو عادة؛ فهو الأوّل الذي من بعده أصبح التقليد الآدمي يعلّم؛ فآدم لم يعرف النّدم إلّا بعد أن وقع فيه عندما ارتكب فعل الخطأ الذي بوقوعه فيه

معصية، عرف شيئين في وقت واحد: (النّدم والألم النفسي) النّدم على فعل المعصيّة، والألم النفسي من الدّونية التي وقع فيها بعد أن كان في عليّة وارتقاء.

فآدم بعد أن عصى ربّه بأسباب الأكل من المنهي عنه، عرف أنّ ما يُنهى عنه لا يكون إلّا مخالفا للفطرة الخلقيّة (في غير مرضاة الخالق)، أي: أنّ المنهي عنه، لا يكون إلّا لضررٍ، سواء أكان نفسيًّا، أم صحيّا، أم خُلقيّا؛ فآدم بعد أن أكل من تلك الشّجرة المنهي عن الأكل من ثمارها ندم وتألم، وظل على ما ألمّ به من ندمٍ وألمٍ حتّى غفر الله له ذنبه ومع ذلك صدر عليه حكم الهبوط من الجنّة ارتقاء، إلى الحياة الدُّنيا على الأرض الدُّنيا.

ولذلك؛ فبأفعال المخالفة والمعصية يتمّ استشعار الذّنب؛ فيلد النّدم والألم في نفس من يأمل الارتقاء عمّا وقع فيه من معصيّة، ومن ثمّ، ليس للإنسان إلّا أن يلتفت إلى نفسه استغفارا وتوبة تخرجه من التأزّم إلى الانفراج، وتعيده إلى حيث ما يجب أن يكون عليه ارتقاء؛ فآدم بعد الهبوط على الأرض الدّنيا لم يظلّ له أمل سوى أمل الارتقاء إلى تلك الجنّة التي خسرها بعلل الشّهوة والرّغبة والإرادة غير المقيّدة من غيره من الخلق، حيث لا وجود لبشرٍ سوى الخلق الزوجي (آدم وزوجه)، ولهذا؛ فلا امتداد على حساب الغير، ولكن جاء الامتداد أو حدث على حساب الفطرة ونواميس الطبيعة، عندما امتدّت رغبة آدم وزوجه إلى الأكل من تلك الشّجرة التي نهي الله عن الأكل منها.

إذا، أساس الحياة هو الفطرة التي خُلقت عليها الأزواج كلّها، أمّا التقليد فكان نتاج الكثرة تزاوجا؛ ممّا جعل الأبناء بين أيدي الآباء يحيون تقليدا؛ فالدّجاجة التي لم تُرضع جعلت أبناءها تقليدا يلتقطون الطّعام بمناقيرهم مثلما تفعل هي، وهكذا بقية الكائنات؛ لكلٍّ فطرته التي فُطر عليها بخاصيّة تميّزه عن غيره من الكائنات الأخرى، التي فطرت على ما فطرت عليه تقليدا.

{فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاس عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ}[41]. أي: لا تبديل للفطرة، ولكن التبديل يتعلّق بما يُمكن أن يُقلّد، ولهذا؛ سيظل الإنسان هو الإنسان كما خلقه الله على الفطرة التي لا تتبدّل، ولكن خيارات الإنسان بين يديه تتبدّل، وفقا للرّغبة والشّهوة والإرادة التي لا تكون إلّا بأسباب التخيير.

فآدم بعد أن أنبأه الله وعلّمه ما لم يكن يعلم أنبأ الملائكة والجنّ والإنس بما أنبأه الله؛ فسجد الملائكة لآدم طاعة لأمر الله، ومن هنا، كان التقليد طاعة للأمر الحقّ تسليما. وفي المقابل فطرة وتقليدا وارتقاء لا يُسلّم للباطل ولا المظالم حتى وإن وقعت أو حدثت كرها.

ولهذا، الفطرة خَلقية تستوجب التسليم، أمّا التقليد الواعي فلا يكون إلّا عن معرفة نابعة من الفضائل الخيّرة والقيم الحميدة، وهذه تستوجب الاتباع سلوكا، وهنا؛ تتضح العلاقة بين الفطرة والخَلق، كما تتّضح العلاقة بين التقليد والقيم الخُلقيّة. أي: إنّ الفطرة تتعلّق بالخَلق، أمّا التقليد فيتعلّق بالخُلق الذي يستمدّ من الفضائل والقيم المتطابقة مع نواميس الفطرة الخَلقيّة.

وعليه: فكأنَّ الحياة البشريّة مؤسّسة على ثلاث دعائم:

. الخَلق (الفطرة).

. النّشوء (التّقليد).

. الارتقاء (الممكِن)

وهذه هي الفطرة التي فَطر النَّاس عليها، فإن تطابق السَلوك البشري معها تقليدا كان سلوكا مرضيا حيث لا تأزّم، وإن خالفها تقليدا كان الألم والتأزم.

---

[41] الرّوم 30.

ولذا؛ فالألم والدّونية والتأزّم كما تكون بعلل المخالفة للفطرة فكذلك تكون بعلل التقليد دونية، أمّا التقليد ارتقاء؛ فلا يكون إلّا مخلّصا من الألم والدّونية والتأزّم، ولا يقف عند هذا الحدّ، بل يتعدّاه إلى ما يُمكّن من تحقيق النُّقلة المرجوة ارتقاء.

وبالعودة إلى فطرة آدم الخَلقيّة (في أحسن تقويم) نلاحظ أنّه قد خُلق وهُيّئ إلى ما يمكّن من التقليد ارتقاء؛ فعلّمه الله ما لم يكن يعلم (النبأ العظيم)؛ فتعلّمه، ثمّ أنبأ به غيره، ولكن هناك من آمن وهناك من كفر؛ فالملائكة سجدوا لآدم طاعة لأمر الله، وفي المقابل إبليس كفر؛ فعصى الأمر، وهنا كمُنت العلّة.

ومع أنَّ إبليس مصدر الإغواء والتزيين المزوّر للحقائق، فإنَّ هناك من الأعمال البشريّة ما لا علاقة لإبليس بها؛ فالإنسان الذي خُلق على الفطرة، خُلق على التقليد أيضا، ولكن أيّ تقليد؟ إنّه التقليد تخييرا قال تعالى: {فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ}[42]، أي: لا إكراه، {لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ}[43]. هذه هي الفطرة، فمن شاء تقليدا أن يؤمن فليؤمن بما يتطابق مع الفطرة الخَلقيّة، ومن شاء أن يخالف الفطرة تقليدا فبإمكانه أن يكفر، ولكن لكلّ حسابه؛ {فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ}[44].

ولذلك؛ فالأخذ بما يتوافق مع الفطرة يمكّن من التوافق النّفسي، كما يمكّن من التوافق البيئي، أي: عندما تتوافق الطبيعة الفطرية مع التقليد ارتقاء

---

[42] الكهف 29.

[43] البقرة 256.

[44] الأعراف 8، 9.

تصبح البيئة بلا تلوّث، وتصبح العلاقات الإنسانية بلا انحرافات أخلاقية، ولا مظالم، بل التوازن هو شعرة اعتدال كفّتي الفطرة والتقليد.

فآدم الذي خُلق على الفطرة خُلق معتدلا في أحسن تقويم، ولكن عندما حاد آدم عن الفطرة، وجد نفسه منحدرا بأسباب مخالفته قواعد البقاء الدّائم ارتقاء، الذي من بعده أصبح الهبوط أمرا واقعا، حيث لا مكان للتخيير؛ فالتخيير فرصة تمنح من أجل حُسن الاختيار عن إرادة، ولكن من يعمل على إضاعة الفرص ارتقاء؛ فالفرص ارتقاء قد لا تتكرر، وفي المقابل فرص الانحدار تتعدّد وتتنوّع وتتضاعف بكتيريا.

ومع ذلك، عندما تُمنح فرص التخيير ارتقاء، تمكّن من التعلّم تقليدا، كما تمكّن من التّعليم بحثا ومعرفة، برهانا من بعده برهان، وحُجّة من بعدها حُجّة، ومعلومة تولّد معلومات، وتجربة تولّد تجارب، وخبرة تفسح السّبيل أمام خبرات، ولا غاية من وراء ذلك ارتقاء إلّا رتق السّماوات والأرض جنّة.

إنَّ الفطرة سُنّة الخَلق التي خُلق الكون عليها معتدلا بمعطيات التضادّ سلبا وإيجابا، أي: لو لم يكن التضاد الكوني لكانت المغالبة التي تنهي الوجود عدما؛ فالاختلاف من سنن الخَلق الباقية ولا تبديل، {وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاس أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ}[45].

ولأنّ الاختلاف فطرة خَلقيّة فلا مفرّ منه، بل ينبغي المفرّ إليه مع الآخر وطي صفحات الخلاف معه، وفي المقابل تترك صفحات الاختلاف مفتوحة فطرة وصبغة، ولذلك سيظل الإنسان هو المتصدّر للاختلاف تخييرا (رغبة وإرادة)، ولا تبديل لفطرة الاختلاف، ومن هنا نجد الأصوات تُرفع على الأصوات تقليدا وكأنّ الأطراف المتخاصمة لا تعرف أنّ الحقّ دائما أعلى من

[45] هود 118، 119.

أيّ صوت، ولأنّه كذلك؛ فلا داعي لرفعه، فاترك الحقّ يعلو تقليدا وارتقاء على كلّ شيء بما فيه صوتك، وإن كان خصمك على حقّ؛ فلا ترفع صوتك عليه، وإن رفعته فلا تستغرب أن يأتي اليوم الذي تُلجمك فيه الحُجّة، ويكون صوته بين النَّاس وعلى الملأ أكثر منك حجّة وارتقاء.

الفطرة لا تكون إلّا على الاختلاف الذي به تُميّز طبيعة الأجناس والأنواع، وبه تترسّخ الخصوصيات، وتشبع الحاجات المتطوّرة بلا ملل؛ فالفطرة هي الطّابع المرسّخ لهويّة الخلائق بشكل عام، ولا خصوصية فيها كما هو حال الصّبغة التي تتعلّق بالصّفة المميّزة للأجناس والأنواع؛ فالفطرة تتعلّق بالعموم، أمّا الصّبغة فتتعلّق بالخصوص، ولذلك؛ فما يخصّ الإنسان يُصطبغ به، وهو يختلف عمّا يخصّ بقيّة الكائنات تنوّعا، أي: ما ينبغي أن يكون عليه الإنسان ليس هو ما ينبغي يكون عليه الحيوان أو الطّير أو السّمك، وكذلك ما ينبغي أن يكون عليه الرّجل ليس هو ما ينبغي أن تكون عليه المرأة، ولهذا؛ فلا تبديل لخلق الله، {فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاس عَلَيْهَا}[46].

فالفطرة ثوابت تُسيّر المخلوقات وفقا لنواميسها الطبيعيّة التي لا تتبدّل، {صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ}[47]. وفي هذا الأمر لا إمكانية للتخيير، وهنا، تتساوى جميع المخلوقات بما فيها الإنسان، الذي تميّز بخاصيّة التخيير فيما لم يكن مسيّرا فيه.

ولأنّ الفطرة خَلق؛ فالدّين يتطابق مع نواميسها الطبيعية تماما؛ فهو أحكام وقوانين منظّمة للعلاقات وضابطة لها، وهو كما يمكّن من معرفة المستحيل والمعجز يمكّن من إحداث النُّقلة وبلوغ المأمول ارتقاء. ولذلك، أنزلت الرّسالات السّماوية لتجيب على المجهول، وتمكّن من معرفته تسليما

---

[46] الروم 30.

[47] النمل 88.

وإعجازا، أو إدراكه مشاهدة وملاحظة؛ فمن يأخذ بأحكام الدّين وقوانينه وفضائله يجد نفسه منسجما مع فطرة خلقه في أحسن تقويم بلا مخاوف ولا شكوك، ومن لم يأخذ بها يجد نفسه وكأنّه في مواجهة مع الجاذبية، أو وكأنّ وجوده على الأرض من خارج هذا الكون.

مرحلة التقليد:

التقليد ارتقاء لا يؤدّي إلّا لموجب، وفي المقابل التقليد انحدار لا يؤدّي إلّا لسالبٍ، ومن هنا يتولّد الحوار بين ما يؤدّي إلى الارتقاء، وبين ما يؤدّي إلى الانحدار؛ فالذي يؤدّي إلى الارتقاء لا غاية من ورائه إلّا اتباع الحقّ، والاقتداء به، وبمن يتّخذه سلوكا وعملا مفعولا، أي: أنّه الاقتداء الذي لا يخضع للبيع والشراء؛ لأنَّ ما يباع ويشترى يُدخِل أصحابه في خانة التبعيّة والانقياد وفقا للثّمن المبيع به أو الثّمن المشترى به؛ فالتقليد ارتقاء يستوجب اتباع الحقّ الذي لا يضع مُتّبعيه في خانة الدّونية، {اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ}[48]، بمعنى: اتبعوا من جاء من أجلكم دون أن يسألكم مقابل، أي: اتبعوا من يراكم قيمة في ذاتكم لا من لا يراكم إلّا بما تقدّمونه بيعا أو شراء.

أمّا الذي يؤدّي إلى الانحدار؛ فهو الضّعف الذي له من القيم السّلبية ما له، كالشّهوة، والشّخصانية، والطّمع، والاتّكالية والنّفاق والجبن والخيانة.

ولهذا؛ فالتقليد ارتقاء لا يكون إلّا بتوفّر الحُجّة المحقّة للحقّ والمدحضة للباطل، أمّا التقليد الموّرث بغير حُجة الحقّ؛ فلا يزيد أصحابه إلّا ضلالا، {إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ}[49] ومع ذلك؛ فالذين

[48] يس 21.

[49] الزخرف 22.

لا حجّة لهم، هم الذين يجب حوارهم وجدالهم حتى يتحرّروا من قيود التقليد الحائل بينهم وبين الارتقاء، ولذلك فاتباع العقل اتباع قدوة وحُجّة، وليس اتباع موروث وأشخاص؛ فالموروث الذي لا يُمكّن من أخذ المواعظ والعبر من التّاريخ هو مورث مُفلس حيث لا قيمة، وهذا الأمر يجعل البعض كمن يلكّ العلكة ثم يخرجها من فمه ليتركها لمن بعده لعلّه يلكّها، وهذا ما يؤدّي إليه التقليد المفسد للقيم التي تمكّن الإنسان من الارتقاء، وإن لم يدرك هؤلاء البعض من النَّاس مخاطر ومفاسد التقليد عن غير دراية، سيجدون أنفسهم يعيشون عصرا قد تجاوزته العصور {وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ}[50].

فالتقليد الذي ينبغي الأخذ به هو الممكّن من تجاوز ما يؤلم، أو ما ينذر بألم، وهنا وجب التمييز بين ما يمكن أن يكون تقليدا نافعا، وبين ما هو أهواء بمبررات مجهولة، {وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ}[51]؛ فينبغي أن يكون التقليد والاتباع للفضائل الخيّرة والقيم الحميدة، والنَّاس القدوة، كما كان إبراهيم الذي وُصِفت قدوته بالأمّة، {إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً}[52]، أي؛ فمن أراد أن يكون قدوة حسنة فعليه أن يستوعب القيم الحميدة للأمّة كلّها، ثم يجسّدها في سلوكه كما جسّدها إبراهيم عليه السلام، لتكون من بعده بين أيدي الأنا والآخر (النَّاس) رحمة تجمع الشّمل على الكلمة السّواء.

فالاقتداء أساسه الحُجّة الفاصلة بين الحقّ والباطل، وليس تقليدا للأفراد في ذواتهم، ذلك لأنَّ الفضائل والقيم تبقى، أمّا النَّاس فزائلون، {اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ}[53]. أي: اتبعوا ما يبقيكم على المكانة والرّفيعة، ولا تتبعوا الزائلين، وإن أردتم أن تكونوا قدوة

---

[50] الأعراف 142.

[51] الجاثية 18.

[52] النحل 120.

[53] الأعراف 3.

حسنة وخلائف في الأرض؛ فخذوا ما أمر الله به ارتقاء؛ لتجعلوه تقليدا لمن خَلفَكم، وهو التقليد الذي يمكّن من خلفكم مِن تنظيم حياتهم على المحبّة والوفاق، ويمكّنهم من العمل المنتج بلا مظالم.

ومع أنّ الاقتداء بالفضائل لا يكون إلّا في مرضاة الله، فإنَّه حتى وإن أخذ الإنسان بكلّ ما قاله الله فلا يمكن أن له يكون الله، بل يكون قدوة حسنة في مرضاة الله، وهو الذي خُلق الإنسان من أجله، وإلّا هل هناك من يظن أنّ الخالق قد خَلق العباد لمعصيته؟

وكذلك، وإن أخذ الإنسان بكلّ ما جاءت به الرّسُل؛ فلا إمكانية لأن يصبح أحد رسولا، ولكن تقليد بإمكانه أن يكون قدوة حسنة. {لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ}[54].

ولهذا؛ فالتقليد الحسن يجعل من المقلِّد قدوة حسنة، وفي المقابل التقليد السّيئ، لا يجعل من صاحبه إلّا سيئا. ومهما بلغ التابعون من التقليد فلن يكونوا مبدعين إن اقتصر تفكيرهم على التقليد فقط، ولذا؛ فالقدوة الحسنة يمكن أن يكون من الذين قضوا نحبهم كما هو حال الأنبياء والرّسل عليهم الصّلاة والسّلام، {قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ}[55]، وكما هو حال رجالات التاريخ مثل الشيخ عمر المختار، والشيخ عبد القادر الجزائري وغيرهم كثير؛ فهؤلاء ومن كان مثلهم مع أنّهم ليسوا من الذين على قيد الحياة، ولكنّهم خير قدوة، ولكلّ رسالته التي بقيت حُجّة بين أيدي المقتدين به. أمّا القدوة على قيد الحياة فإلى جانب كونه قدوة فضائل وقيم، ولكن ينبغي أن يضيف إلى ما جعله قدوة، ما يجعله قدوة أكثر ارتقاء، وهكذا يصبح الاقتداء من حسنٍ إلى ما هو أحسن من أجل بلوغ القمّة قيما وفضائل.

---

[54] الأحزاب 21.

[55] الممتحنة 4.

ومع أنّ التقليد لا يكون إلّا لسابق، ولكن دائم من أجل الارتقاء التقليد الحسن يتجدّد، والتقليد ارتقاء دائما للأحسن حتى وإن جاء ممّن هو أقل مكانة، كما هو حال ابن آدم الذي كان الغراب أكثر منه معرفة بما يُمكن أن يُقلّد؛ فابن آدم الذي قَتل أخاه ولم يكن يعرف كيف يواري سوءته، وقف عاجزا في حيرة من أمره إلى أن بعث الله غرابا ليريه كيف يواري سوءة أخيه، {فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي}[56].

إذا، التقليد ارتقاء لا يكون إلّا بالمعرفة المرشدة لما هو أفضل، وممّن تكون؛ فالأشخاص لو لم تكن لديهم المعرفة الكافية والواعية فلا إمكانية لأخذهم قدوة، وعندما يفتقر الإنسان إلى المعرفة الحسنة؛ فلا إمكانية لأن يكون قدوة، ومن هنا فمن تكون له المعرفة ارتقاء يكون قدوة حسنة ما تجسّدت المعرفة الواعية في سلوكه، ومن يفتقدها فلا اقتداء به.

ولأنّه التقليد فهو اللاحق على السّابق، وهو ليس بالضّرورة أن يكون مُبدعا في الوقت الآن، ولهذا؛ فالشيء المبدع لا يكون تقليدا إلّا بعد أن يؤخذ به عملا وسلوكا، ومع ذلك؛ فالتوقّف عند التقليد لا يمكّن من الارتقاء المأمول، ولهذا وجب العمل بغاية تطوير المعارف والوسائل والأساليب والمناهج حتى تتّسع دائرة القدوة والمقتَدى به.

إذا؛ فالتقليد لا يمكن أن يوصف بهذا الصّفة إلا إذا لاحق فعلا سابقا، ومن هنا؛ فهو لا يعدّ إبداعا، بل هو ملاحقة لما يجب أن يلاحق من أجل ملاحقة ما يجب أن يكون ملاحقا. أي: يجب ملاحقة الماضي وأخذ المواعظ والعبر منه، ثمّ الانطلاق من المواعظ والعبر إلى تحقيق ما هو مأمول ارتقاء.

---

[56] المائدة 31.

والتقليد يُمكِن أن يكون متطابقا مع الفطرة، ويمكن أن يخالفها؛ وفي كلتا الحالتين التقليد يؤسّس للمعرفة، ولكن أيّة معرفة؟ فإن كانت المعرفة مؤدّية إلى ما يمكّن من حُسن التدبّر، كانت معرفة محفّزة على تحقيق الأجود والأكثر فائدة والأنفع، ولكن إن كانت على عكس ذلك؛ فلن تكون مؤدّية إلّا لما يؤلم.

وعليه:

فالتقليد لا صفة له في مفهومه إلّا إذا صُنِّف ووصِّف، وإن لم يُصنّف ويوصّف يظل مفهوما ساكنا، وكأنّه لا علاقة له بالحركة المحفّزة على الفعل والسّلوك والعمل؛ فهو في دائرة الممكِن بين متوقّع وغير متوقّع؛ فالمتوقّع بالنّسبة للموجب موجب، والمتوقّع بالنّسبة للسّالب سالب، أمّا غير المتوقّع فهو المفاجئ لكلٍّ من الموجبِ والسَّالب، ومن هنا، نجد الشّخصيّة الأنانية قدوة لمن يكون أنانيًّا، والشّخصية الموضوعيّة تكون قدوة لمن شاء أن يكون موضوعيّا، وهكذا ستكون المقاييس مختلفة بالنّسبة للشّخصية الذّاتية والانسحابية والتطلّعيّة، وفي كلّ الأحوال التقليد يمكن أن يتغيّر بالتّعلّم والتّعليم والتّربية، ولذلك؛ فالمنطق ارتقاء يقرّ أنّ: (أنا) و(أنت)، طرفان مختلفان؛ فأنا لم أكن أنت، ولن، وأنت كذلك لم ولن تكون أنا؛ فأنت بالنّسبة لي تعدّ الآخر، وهكذا (أنا) بالنّسبة لـ(أنتَ).

فالمنطق تقليدا وارتقاء وحده الذي يؤسّس لحوار تعتدل فيه كفّتا الميزان، حيث لا مغالبة ولا إقصاء بغير حقّ، ولذلك؛ فمِن مستهدفات منطق التقليد ارتقاء أن تسود بين المتحاورين القيم الاستيعابية (نحن)، بدلا من منطق (أنا أو أنت)؛ فمنطق (نحن) منطق استيعابي لا يستثني أحدا من المتحاورين المختلفين، أمّا منطق (أنا) أو (أنت) فهو منطق إقصائي يفرّق بلا حُجّة، ولذلك يا ليته لم يكن تقليدا.

ومن ثمّ، لا يُمكِن لنا أن نُحدّد ما يُمكّن من التقليد ارتقاء ما لم نعرف معايير المقلّد؛ فأهل الأوطان والأديان عندما يقرّرون ارتقاء الأخذ بالتقليد الممكِّن من الالتقاء على الكلمة السّواء؛ فلابدّ لهم من الجلوس على طاولة حوار واحدة، حتى يتبيّنوا المعايير الممكّنة من الأخذ بالكلمة السواء، وهي الكلمة التي تجمعهم وتجعلهم على الحقّ بلا مخاوف، (نحن سويّا، نحن معا).

ولكن إذا لم يحتوهم مفهوم (نحن معا) سيظلون على ما هم عليه بين الضميرين (نحن) أم (أنتم) ممّا يجعل التقليد بين الأفراد مؤسّسا على المفهوم: (أنا) أو (أنت).

ولهذا؛ فالتقليد (أنا) يختلف عن التقليد (أنت)، ومع ذلك نحن سويّا نمتلك المقدرة الحسّية التي تجعل بيننا مبدأ التقبّل تقليدا هو السّائد، والعقل تقليدا وارتقاء هو مصدر الحوار، والمنطق تقليدا وارتقاء هو الوسيلة المثلى التي نحتكم بها حجّة ومن ورائها حُجج.

ولأنّنا نمتلك ثروة هائلة من قواعد المنطق تقليدا، ونمتلك ثروات هائلة من المشاعر والأحاسيس والطموحات والآمال، فَلِمَ لا نترك تقليدا يُسخّر كلّ ذلك من أجلنا جميعا؟

ولماذا الفُرقة التي تترتّب عليها العداءات التي تحول بين التقائنا (أنا وأنت)؟ ولِمَ لا نكتب معا (نحن بنو الوطن الواحد) نحن الذين تربطنا علاقات فسيحة مع بني آدم (الإنسانية) ونقرّ أنّ لكلٍّ خصوصيّة.

وعليه:

فكلمتا (أنا أو أنت) تقليدا تسمحان بمسافة فراغ تجذب مشاعر الحذر وأخذ الحيطة إليهما؛ فكلّما زاد تمسّك وتعصّب الأنا بأناته اندفع (الأنت) لإعادة حساباته تقليدا، وهذه تزيد الشكوك وتقلل من الثّقة التي

ينبغي أن تغرس وتسود بين الطّرفين (أنا وأنت)؛ فأنا الفرد ينبغي أن أسود بكرامتي، وأنا الحرّية ينبغي أن أعمّ النَّاس، وأنا الشفافية ينبغي أن أكون السّلوك والفعل، وأنا الوطن ينبغي أن أكون ملكا خالصا لأهلي، وأنا المحبّة والأبوّة والأمومة والأخوة والأسرة والجيرة التي لا ينبغي أن يحرم أحد من مشاعري وانتمائي.

فأنا المنطق تقليدا وارتقاء: ينبغي أن أسود بينكم إذا أردتم التفاهم والتواصل، أو أردتم الاعتراف والتقدير والاحترام، وكذلك متى ما أردتم غرس الثّقة بينكم أخوة متحابّين، وهكذا أنا النَّاس كلّ النَّاس تقليدا وارتقاء.

ومن ثمّ، فكلمة (أنا) تقليدا هي كلمة حقّ لابدّ أن تقال. وفي المقابل تصبح كلمة الباطل التي عليها (أنت) باطلا لابدّ أن يزال، وكلمة (أنت العبد) ينبغي أن تصبح في خبر كان بأسباب الحرّية والانعتاق، وعندما تكون (أنت) الاستعمار يجب أن تُهزم وترحل أو ترحّل، وأنت القيد يجب أن تُفك أو تُكسّر، ولذلك؛ فأنت لم تكن أنا؛ ويا ليتك تفهم أنّنا نحن سويًّا بنو وطن واحد؛ فَلِمَ الفراق؟ ونحن بنو آدم؛ فلِمَ لا نأخذ بأيدي بعضنا تقليدا وارتقاء؟

وعليه:

فإن لم يحدث اللقاء والتفاهم والتفهّم تقليدا بين (أنا) و(أنت) المختلفتين بمعطيات الخصوصية فطرة وتقليدا؛ فلا تستغرب أن يكون الصّدام هو سيّد الموقف، والانحدار هو السّبيل وإن كان غير مأمولٍ. ولكن إنْ أردنا الحلّ؛ فعلينا بالجلوس حول طاولة (نحن) التي تجمع شتاتنا، وتخلّصنا من ارتكاب المظالم، وتجنّبنا الألم المترتّب على المواجهة والخلاف، ومن ثمّ، يجب التفكير فيما نفكّر فيه قبل أن يحدث الألم.

ومع أنّ التقليد يقود إلى الأخذ بما يتطابق مع الفطرة ارتقاء، فإنَّه في المقابل قد يؤدّي بأصحابه إلى ارتكاب أعمال المعصية التي حدثت ابتداعا من أبينا آدم، والذي من بعده أصبحت المعصيّة وكأنّها من أعمال التقليد.

ومع أنَّ التقليد يثبّت العادة الحسنة، فإنَّه في ذات الوقت يثبّت العادة السيّئة، ومن ثمّ توجد علاقة واضحة بين التقليد والتخيير؛ فأينما وجد التخيير وجد التقليد، وأينما وجد التسيير انعدم التقليد {وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا}[57]، فهنا يكمن التخيير والتقليد معا، حيث لا فجور ولا تقوى إلّا اختيارا وتقليدا؛ فمن أحسن الاختيار تقليدا كانت نفسه على التقوى، ومن لم يحسن الاختيار تقليدا يجد نفسه على الفجور ولا تقوى.

ولسائل أن يسأل:

وما هي العلاقة بين الاختيار والتقليد؟

أقول:

الإرادة، التي لا اختيار إلّا بها، ولا تقليد إلّا بها؛ فهي متى ما كانت واعية بما يراد كان الاختيار صائبا، ومتى كانت غير واعية بما يُراد فلا تكون إلّا خاطئة، ومن هنا وجب تصحيح المعلومة الخاطئة بالمعلومة الصّائبة.

ومع أنّ التقليد لدى البعض هو القبول بلا حُجّة، فإنَّه لدى البعض الآخر هو الأخذ بها، ولهذا أخذ الخَلف من السّلف كما أخذوا من الرّسُل، غير أنّ الأخذ من الرّسل هو أخذ تسليم بالمعجزات، أمّا الأخذ عن غيرهم فأخذ عِبر ومواعظ، ولهذا فمحاجّة الرُّسُل آية ومن ورائها آيات، أمّا محاجّات غيرهم، فهي في دائرة الممكن براهين ومقدمات ونتائج تخضع للقياس.

[57] الشمس 7، 8.

ومن ثمّ؛ فالتقليد هو عمل العقل ومسؤوليته، حيث لا تقليد إلّا به، سواء أكان عن تدبّر حسن أم سيئ؛ ولأنّه من إعمال العقل فهو من إبداعاته، ولأنّه من إبداعاته فهو المتجدّد مع كلّ جديد من أجل ما هو أكثر جدّة.

ولأنّ التقليد من عمل العقل فالعقل كما ابتدعه تقليدا؛ فهو قادر على الخروج عنه بما يخالفه تقليدا على التّمام؛ فعلى سبيل المثال: بعد الطّوفان وسفينة نوح المعجزة، كان النَّاس أمّة واحدة على الحقّ ولا مُخالف، ثمّ بعد حين من الدّهر، انحرف البعض عمّا كان يسلك تقليدا في مرضاة الله؛ فضلّ من ضلّ، وبقي على الهداية من بقي، حتى بعث الله رُسُلا للأقوام الضّالة والأمم الضّالة؛ ليعيدوا النَّاس إلى فطرتهم ورشدهم تقليدا من بعده تقليد.

ومع أنَّ التقليد من أعمال العقل؛ فإنَّ البعض لا يأخذ به إلّا عاطفة؛ ومن هنا يصبح الميل عنه متأثرا بما هو غريزي، وذلك بعلّة تأمين الحاجات، حيث الأخذ بما يشبع الرّغبة والشّهوة، (ولكلّ قاعدة شواذّ). ومع ذلك؛ فالعقل ارتقاء قادر على تنظيم العاطفة وإرشادها إلى ما يجب، ولكنّ انحدار العاطفة قادر على جرّ العقل إلى ما يشبعها غريزة. وفي المقابل تظل الفطرة ثوابت لا تتأثر ولا تنقاد لغير ما هو طبيعي.

فالفطرة تتأثر بالخَلق وترتبط بالخالق، أمّا الغريزة فتتأثر بالخُلق، وترتبط بالمخلوق، ولذا؛ فالفطرة شاملة لما خُلق، وهي من طبيعة الخلائق، أمّا التقليد فهو المبتدع ممّن خُلق على صِبغة التذكّر والتدبّر والتفكّر، ولهذا فالفطرة لا تتغيّر ولا تتأثر بالعاطفة، وفي المقابل التقليد يتغيّر ويتأثر بالعاطفة. وكذلك الفطرة لا تكون إلّا على الإيجاب، والتقليد معرّض للسّلب والإيجاب، ومن ثمّ؛ فالفطرة مصدر القوّة، أمّا العاطفة فمصدر الضّعف (والإنسان مخيّر).

إذن: الفطرة هي خلق الشيء في الشيء ذاته، وهي ليست بخلق الشيء من ذات الشيء، كما هو حال النشوء المؤسّس على خلق الشيء من الشيء؛

فالفطرة مثل الهوية التي بها تُعيّر المعادن، حيث لا قيمة للشيء إلّا بما هو عليه من معيارية، ولذا؛ فالفطرة هي الهويّة المميّزة للأجناس والأنواع خلقا.

والتقليد من زاوية الارتقاء هو ما يُفعل ويترك أثرا موجبا، ويؤخذ به من قبل من استحسنوه قولا أو فعلا أو عملا أو سلوكا، أمّا التقليد من زاوية الانحدار فهو شذوذ عن القاعدة التي ينبغي أن يكون عليها الارتقاء تقليدا. ولذلك؛ فالتقليد من اختيارات المخلوق، والفطرة من مشيئة الخالق، ولكلٍّ أثره.

ومن ثمّ؛ فالأخذ بالقيم والفضائل تقليد يخلق القدوة الحسنة التي تأخذ بالاقتداء والاعتزاز الذي يجعل للإنسان قيمة؛ فالأبناء أوّل من يقتدون به قدوة هم آباؤهم إن كانوا قدوة، ومدرسوهم إن كانوا قدوة، ثمّ ينضجون بحثا عن مكانة تليق بهم وفقا لما يأملونه ارتقاء، ولذلك فالقدوة الحسنة تترك أثرا طيبا لدى الأجيال، في مقابل ما تتركه القدوة السيّئة من أثر غير حميد؛ فمن يقتدي بالقول والسّلوك والفعل والعمل الطيّب يجد نفسه مقتديا بما هو مرغوب فيه قيمة وفضيلة، ومن يقتدي بغير ذلك سيجد نفسه على غير قيم حميدة ولا فضائل خيّرة؛ فالقدوة الحسنة تبقى قدوة حتى وإنْ انتهى أصحابها؛ فالأنبياء كونهم قدوة حسنة هم أحياء (حجّة وعقيدة، وفعلا وعملا وسلوكا)، وهكذا رجالات التاريخ وصنّاعه قدوة.

وعليه:

فالمربّي يكون قدوة حسنة متى ما نقل للنشء تجاربه الموجبة، وخبراته النّافعة، وقيم المهنة الرّاقية، وفضائل المجتمع الخيّرة، وفي المقابل قد يكون قدوة سالبة إذا لم يتطابق قوله وسلوكه وفعله وعمله مع أخلاق المهنة وقيم المجتمع وما ترتضيه الإنسانية.

وهكذا المعلّم قدوة حسنة، متى ما نجح في حمْل المعلومة المتجدّدة ارتقاء، وكذلك الأم قدوة حسنة موجبة، متى ما نجحت ارتقاء في غرس مشاعر الأمومة في أبنائها، وفي المقابل تكون قدوة سيئة متى ما انحرفت منهجا وخُلقا وسلوكا. وكذلك الأب يظل قدوة حسنة متى ما غرس عاطفة الأبوة في أبنائه جنبا إلى جنب مع قيم المجتمع المفضّلة، ويكون قدوة سلبية متى ما انحرف عمّا تفضّله الإنسانية من قيم.

وبما أنَّ القدوة الحسنة حلقة وصل تربط الأجداد بالأحفاد، إذا: فتواصل الأجيال يتطلّب القدوة، وتواصل الحاضر مع الماضي يتطلّب الذّاكرة، وهكذا تواصل الحاضر مع المستقبل يتطلّب الأمل.

مرحلة توليد الفكرة:

تعدّ الفكرة التي هي من إعمال العقل استمدادا لشيء مجرّد من الشيء المشاهد أو الملاحظ، كما هو استمداد القوانين من المعطيات الكونية والطّبيعية، ولأنّها مولود العقل فهي متى ما وُلدت فيه وُلدت منه رؤية لشيء قابل للتحقّق بين أيدي النَّاس، وهي لا تكون كذلك إلّا بتلاقح الآراء (سالبها وموجبها)، وكلّما كثرت المستفزّات الخَلقيّة والخُلقيّة أثارت العقل انتباها لما يجب؛ فتدفعه حيويّة الحيرة تجاه التخلّص من العَتَمة التي تَحول بين المحيّر والمأمول.

ومع أنّ الفكرة تخلّص من الحيرة، فإنَّها لا تكون ارتقاء إلّا من بعدها؛ فالحيرة بالنّسبة للفكرة تعدّ مخاض ولادة، وولادة الفكرة بدون حيرة تسبقها، هي: ولادة قسرية؛ فلا يمكن أن يتطابق الزّمن الافتراضي لولادتها مع زمن قسريتها، فتلد مشوّهة، وبالتالي ستكون الحلول أو المعالجات أو الإصلاحات المترتّبة عليها منقوصة، أو منحرفة تجاه المخالف للمأمول ارتقاء.

ومع أنّ هذا الأمر يعدّ سالبا بالنّسبة للفكرة ارتقاء، فإنَّه الأمر المحيّر والمستفزّ لعقول الآخرين إيجابا، ممّا يحفّزهم ويدفعهم إلى الالتفات تجاه المحيّر، حتى تلد الحيرة فكرة، تخرج من التأزّم.

ومع أنّ زمن الحيرة الفكرية مُقلق لمن ألمت به وألمّ بها، فإنَّه المخاض الذي ينذر بولادة ما يسرّ العقل والنّفس، وما يسرّ الغير ارتقاء، ولذلك؛ فالبحوث العلمية ارتقاء تسبقها الحيرة المؤدّية إلى ولادة الجديد المحفّز على حيرة جديدة من بعدها حيرات تُمكّن من إضافة ما هو أفيد وأنفع.

إذا؛ فلا داعي للقلق من الحيرة؛ فقلق الحيرة يُمكّن من الإلمام بالمحيّر حتى يُقتنص له حلّا، ومن لا حيرة تستفزّه؛ فعليه أن يفكّر في الشيء استحالة أو إعجازا أو ممكنًا حتى يقتنص حيرة بها يقتنص فكرة تلد له حلّا.

وهذا لا يعني أن تكون الحيرة غاية في ذاتها، بل الغاية من ورائها حلّا، ولكن هذا الأمر يتطلّب مقدرة على تحدي المقلق بما يُقلقه، حتى يصبح القلق بولادة الفكرة في خبر كان؛ فأهل العلم والبحث العلمي لا يمكن أن يصلوا إلى غاية الارتقاء إلّا بعد الحيرة، ومن لا يقبل الجلوس مع الحيرة تحدّيا فلا إمكانية لأن يُكتب له التحدّي في ميادين العلم والمعرفة المصنّفة.

ولسائل أن يسأل:

هل الفكرة والحيرة ولدتا مع مولد آدم، أم أنّهما اللاحقتان عليه؟

بالنّسبة لآدم لم يكن مولودا، بل مخلوقا خلقا مباشرا بلا أب ولا أم، ولهذا ما وجد عليه فهو المخلوق معه خلقا، ولكن بنوه؛ فكلّ شيء فيهم خُلق سلالة من نطفة؛ فآدم خُلق في أحسن تقويم، وهذا يدلّ على أنّه معدّ للحياة لحظة خَلقه، أمّا بنوه من بعده فحالهم حال الولادة والنّمو والتعلّم والتعليم،

أي: حالهم حال من لا يستطيع أن يفكّر لحظة الولادة، ولكن في دائرة الممكن يبلغ ذلك تعلّما وتعليما.

فآدم كانت علاقته بالخالق والمخلوقات من حوله علاقة فطرة مباشرة، ولكن المحيّر بالنّسبة لآدم هو حياته في كونين مختلفين على التّمام، كون الارتقاء (الجنّة) وكون الدّنيا (الأرض)، فهو بعد أن كسب الجولة خَلقا، خسرها خُلقا، وذلك بعد أن أهبط به بسبب المعصية التي ارتكبها، ومن هنا بدأ يفكّر كيف يمكنه الارتقاء ثانية من الحياة الدّنيا إلى تلك الحياة العليا؟ في ذلك اليوم وُلدت الحيرة، أي وُلدت الحيرة إنذارا بولادة الفكرة؛ فكان الاستغفار والتوبة نتيجة الفكرة التي أخرجت آدم من حيرته إلى ما يُمكّنه من بلوغ الارتقاء إلى تلك الجنّة التي أهبط منها. وهي الحيرة ذاتها التي ألمت بابنه في لحظة قتله أخاه، ولكنّه وقف قاصرا عن المعرفة حيث لا فكرة له عمّا جرى بيديه؛ فبعث الله غرابا ليريه سلوكا وعملا يمكّنه من المعرفة بلا فكرة من عنده.

ولهذا؛ فالفكرة ينتجها العقل، وتأخذها العقول، وتوظفها فيما يمكن أن يوظّف ويفيد.

وعليه:

لقد استلهم آدم الفكرة من أمورٍ:

الأمر الأوّل، من طبيعة الفطرة: التي خُلق عليها واصطبغ بها وجوده في أحسن تقويم، ولكن لأنّه خُلق على التسيير والتخيير؛ فكان للتسيير الطبيعة الخَلقية، وكان للتخيير فسحة الإرادة التي مكّنت آدم من الأكل من تلك الشّجرة المنهي الأكل منها؛ فخالف أمر النّهي معصية؛ بأسباب قصور معرفته أمام كمال الخالق وإحاطته؛ ذلك لأنّ آدم وبنيه لا يعلمون إلّا ما يُعلّم، ومن هنا كان الإنباء لآدم مصدر المعرفة ومكمن الفكرة ارتقاء.

ولهذا؛ فالفطرة التي فُطرت المخلوقات عليها هي التي جعلت لكلّ زوجين خصوصية، دفعتهما تجاه بعضهما، وهي ذاتها التي حالت بينهما وبين الأزواج الأخرى إلّا بما يفيد، فكانت حياة الفطرة ميسّرة لكلّ الأنواع تيسير جاذبية نوعيّة، وغريزية؛ ومع ذلك ظلّ الإنسان مهيأ لما هو أعظم؛ فكان عقله مقلّدا لما يراه في دائرة الممكن تخييرا.

الأمر الثاني، التقليد: وهو الذي لا يكون إلّا عن عقلّ، ولكن القصور على التقليد لا يمكّن من توليد الفكرة، ذلك لأنّه لم يمرّ بزمن الحيرة الممكّن من التعمّق في التفكير حتى كشف اللثام عن الحقيقة في دائرة الممكن المتوقّع وغير المتوقّع؛ فآدم تقليدا: قلّد إبليس؛ فأكل من المنهي عنه، وكذلك ابنه: قلّد الغراب؛ فعرف كيف يواري سوءة أخيه، وهكذا، هي الحياة تطوّرا من الخَلق، إلى الفطرة، إلى التقليد، إلى توليد الفكرة، التي توليدها لا ينقطع فكرة من بعد فكرة. ولكن يظل التقليد قاصرا، والفكرة في حيّز العقل مهما عظمت؛ فهي لا تخرج عن دائرة الممكن؛ ولهذا، بعث الله الأنبياء والرّسل بالنبأ العظيم مبشّرين ومحرّضين ومنذرين وداعين للتفكير ارتقاء.

الأمر الثالث، النبأ العظيم: مع أنّ الإنسان خُلق في أحسن تقويم، فإنَّه لم يُخلق على الكمال، ولهذا؛ فتفكيره لا يمكن أن يخرج عن حيّز دائرة الممكن؛ فكان الإنباء بما يجب من الخالق إلى المخلوق يمكّن المخلوق من الوقوف على المعجِز، ومعرفة المستحيل مستحيلا؛ فأنزلت الأحكام المنظمّة للعلاقات بأسباب الاختلاف والخلاف الذي حدث على الأرض الدّنيا، معصية واقتتالا، ليفتح آفاق التفكير فيما يجب أن يؤخذ، وما يجب أن يُجتنب، وما يجب أن يُنتهى عنه.

ومن ثمّ؛ تعدّ الفكرة هي الأمر الرّابع الممكّن من المعرفة والبحث في دائرة الممكن، وهذا لا يعني: أنّ الإنسان قبل ذلك لا يمتلك الفكرة، بل قبل

ذلك كانت حياة الفطرة هي السّائدة، ثمّ حياة التقليد، ثمّ من بعدها حياة الإنباء الذي جاء تنزيلا على الأنبياء والرُّسُل عليهم السّلام، بهدف تقييم الأخطاء، وتقويم السّلوك والعمل، الذي ولّد الفكرة، وولّد منها أفكارا.

فالفكرة إنتاج العقل وإعماله، وهي بالنّسبة لمن تولّدت في عقله مثل البذرة، أو النّواة التي يراها المفكّر مخزّنة في محفظة ذاكرته وكأنّها الشّجرة متكاملة، جذورا وجذوعا وأغصانا وأوراقا وثمارا؛ فهو يراها على هيئة الصّورة قبل أن تتجسّد في الشّكل والصّورة. ومن هنا، يكون مولود الفكرة هو الإبداع الذي يُسهم في إضافة الجديد النّافع ارتقاء.

ولهذا؛ فالفكرة في ذاتها مجرّدة، حيث لا هيئة لها إلّا في ذهن المفكّر الذي نضجت في عقله مثلما تنضج النّواة من تربتها شجرة متكاملة، ولذا؛ فالهيئة تكون للصّورة التي أساسها فكرة، ومن ثمّ؛ فالفكرة ترتبط بالمشاهد والملاحظ مثلما ترتبط بالمجرّد، والفكرة متى ما تكون نتاج تذكّرٍ، يكون التفكّر هو المهيئ لاصطيادها، أمّا التدبّر؛ فلا يكون إلّا نتاجها سلوكا وعملا.

والفكرة وإن كانت مجرّدة في الذّهن، فإنَّها على أرض الواقع تتجسّد في المشاهد والملاحظ، سواء أكانت معرفة قيم وفضائل ونظم وقوانين، أم أنّها معرفة ملموسة مادّيّا، ومن هنا كانت هيئة الخلق سابقة على صورته مخلوقا، وهيئة المصنوع سابقة على وجوده مصنوعا.

ومن ثمّ؛ فالفكرة متلازمة مع التكاثر تكاثرا، فمع أنّها لم تكن مخلوقة، فإنَّها تتخلّق في عقل الإنسان تدبّرا من بعده تدبّر، وإنتاجا من بعده إنتاج؛ فهي القوّة الموجدة لما لم يوجد من قَبل، وهي وإن لم تتطابق مع خلق الشيء من لا شيء، فإنَّها تتماثل معه من حيث إيجاد الشيء من الشيء نشوءا؛ فالإنسان الذي خُلق نشوءا زوجيا، كان وجوده وفقا لقانون الفطرة والتقليد، ولكنّه من بعد ذلك إنباء استطاع أن يتبيّن مكامن الحقيقة التي لفتته إلى نفسه

ومَن حوله، فاستكشف علاقات قابلة لأن تتطوّر ارتقاء، فاستفزّت عقله يقظة زوّدته بالمعرفة الممكّنة من البناء والإعمار وتحدّي الصّعاب التي تواجهه كلّ يوم.

وكما أنّ الحيرة يقظة عقلية تستوجب مواجهة القلق بما يُقلقه؛ فكذلك الصّعب يعدّ معطية مثيرة للعقل ومستفّزة لملكاته، التي تتحفّز إلى المواجهة معه متى ما اعترض طريقها، ومن هنا، بدأت مواجهة العقل للصّعب؛ تحدٍّ من ورائه تحدٍّ، وفي المقابل الصّعب يقدِّم التنازل من بعد التنازل.

فالصّعب ليس بالمستحيلٍ ولا المعجز، حتى يستحال تحدّيه، بل ميادين تحدي الصّعب هي فسيحة في دائرة الممكن المتوقّع وغير المتوقّع، ولا خوف من مواجهة الصّعب، بل الخوف ألَّا تحدث المواجهة معه؛ فالمواجهة العقلية معه كلّما حدثت عن تدبّر فكرة أنتج العقل فكرة أكثر ارتقاء، ولذا، ستظل الفكرة عقلية إلى حين استخراجها فيما يمكن أن يكون على الشّكل أو الصّورة، أو المفهوم والدّلالة والمعنى، والذي يتجسّد في العمل والسلوك.

ومع أنّ العقل مكمن الفكرة، فإنَّه أيضا منبع الأمل، ومع أنّهما معا من إعمال العقل وفي محفظته، فإنَّ الأمل يتعلّق بالغايات الخارجية، التي في دائرة الممكن لا تُبلغ إلّا تخييرا وإرادة؛ فمن يمتلك الإرادة يستطيع الاختيار الممكّن من التدبّر وحمْل المسؤولية، ومن لا يمتلكها فإشارة قف لا تسمح له بالعبور إلى ضفاف الارتقاء؛ ولذلك وراء كلّ غاية فكرة، ولكن أيّة فكرة؟

هل هي فكرة فكّ القيد؟ أم أنّها فكرة وضعه؟

أقول: القيد مولود الفكرة؛ فلو لم تكن الفكرة ما كان القيد؛ فالإنسان عندما لا يستطيع ضبط نفسه عن إرادة يجد نفسه يفكّر والحيرة تملؤها حتى

يجد قيدا لضبطه، وبعد أن يُقيّد بما أوجده من قيد من قِبل الغير، يبدأ يبحث تفكرا في كيفية فكّه وبكلّ ما يتيسّر له حيلة.

ولذا؛ فمن يرد أن يكون إنسانا في أحسن تقويم عليه أن يتمسّك بعقله الذي به يتميّز عن غيره، وإذا أرد الحرّيّة فعليه أن يقبل التنازل عن عقله كي يستطيع في دائرة الممكن أن يفعل ما يشاء متى ما يريد، ولكنه نهاية سيعرف أنَّ للحرّية ثمنا، وهكذا إذا أرد الاثنين معا؛ فعليه أن يقبل بحياة المساجين الأحرار التي يشار إليها بالقضية:

(كل أ ليست أ)

فنحن بني آدم لولا العقل وما نفكّر فيه ما عرفنا المرغوب والممنوع، ولا المحلّل والمجرّم، ولولا العقل والفكرة ما استعملنا كلمتي: (قف وسر)، ولا كلمتي: (لا، ونعم)، ومن ثمّ؛ فإن لم يقيّد الإنسان نفسه عقلا سيجد نفسه مقيّدا من قِبل الغير بفكرة القيد التي أنتجها عقله، ومع أنّ السّجن هو السّجن؛ ولكن تدبّرا إن وَضع الإنسان نفسه في قيد عقله؛ فهو على الأقل أصبح يمتلك الإرادة، ولكن إن وُضع القيد في يديه كرها؛ فهل يمكن له أن يكون على شيء من الإرادة؟

ومن ثمّ؛ فإذا سلّمنا أنّ العقل هو الذي يقيِّد نفسه ألا نسلّم بأنّه قادر على فكّ قيده عن نفسه ارتقاء؟

لا شكّ أنّه سيكون قادرا إذا قبل التوقّف عند حدوده، ولا يتمدّد على حساب حدود الغير؛ ولكن إن تمدّد فسيجد نفسه سجين تلك الفكرة التي أنتجها قيدا.

ولهذا؛ فالإنسان الأوّل الذي خُلق على الزّوجية عاش حياة الفطرة جنّة، إلى أن عصى ربّه؛ فأهبط به والأرض أرضا؛ فظلَّ من بعد الهبوط على

أمل العودة إلى تلك الجنّة، وظلّ بنوه من بعده يسعون ويعملون كلّ ما من شأنه أن يرتقي بهم إلى المأمول غاية؛ فتولّد التفكير في عقولهم، فكرة من بعدها فكرة؛ فأنتجوا الثّقافات، وبنوا الحضارات، ومع ذلك؛ فهم يعلمون أنّهم كلّما أنتجوا فكرة واجهتهم صعاب تستوجب المزيد من إنتاج الفكرة، ولذلك؛ فهم قبلوا التحدّي والصّعاب كلّ يوم تهزم صعوبة من بعد صعوبة.

ولذلك؛ فمرحلة الفكرة جعلت الإنسان على المعرفة الممكّنة من كشف العلاقة بين الخَلق والنّشوء والإعجاز والارتقاء، وفتحت أمامه آفاق البحث العلمي الممكّن من صناعة المستقبل وتجاوزه ارتقاء.

ومع أنّ الفكرة مولود العقل، فإنَّ مستفزّها خارجية، {أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ}[58]. ولذلك؛ فالفكرة لا تستمدّ من العالم الخارجي كما كان يراها أرسطو، بل العالم الخارجي هو مصدر استفزازها؛ فيخرجها من الكمون إلى حيّز الوجود وكأنّها تُعبث من العدم.

فالفكرة في ذاتها هي مجرّدة، ولكن في مفهومها ومضمونها تحمل رسالة، أو مشروعا أو رؤية، أو حلّا يمكّن من فكّ التأزّمات، والإقدام على ما يمكّن من الارتقاء؛ فالفكرة لم تكن خاطرة عابرة تأتي هكذا وتذهب وكأنّها لم تأت، بل الفكرة كما تستمدّ من السّابق، فهي تضيف الجديد، ثمّ تفتح آفاق الارتقاء مع المستقبل.

ولهذا؛ فالفكرة تمكّن من استخراج المجهول من المعلوم، أي: تستكشف المعلوم وتخرج المجهول منه؛ فيصبح معلوما وليس مخلوقا؛ فالفكرة تستنبط

[58] الغاشية 17 . 21.

وتستمدّ من المخلوق شيئا لا ينقص من المخلوق شيئا، وفي المقابل تزداد المعارف أشياء مستكشفة.

والفكرة لم تلد في الخارج، بل الخارج يستفّز العقل ويُلفته إلى ما يُمكِن أن يُستكشف؛ فيبدأ العقل إعماله تجاه المستفزّ والحيرة تلازمه حتى يبلغه، وحينها لا تجد الحيرة مكانا لها عند المستكشف معرفة، أي: لا يمكن أن تبقى الحيرة مع التجلّي المعرفي، بل هي تبقى مع بقاء اللبس والغموض، وفي المقابل تزول بزوالهما.

والفكرة تعدّ صوغا عقليّا لمولودٍ لم يولد بعد؛ وهو بعد الولادة لن يكون فكرة، بل شيئا غيرها، ولكنّه المؤسّس عليها؛ فلو لم تكن ما كان، ولهذا؛ فالفكرة هي استنباط الشيء من الشيء، بعد تهيّؤه على الشّكل أو الصّورة أو الرّسالة والموضوع، ممّا يجعل المستنبط في صورة موضوع عام، حيث لا تفصيل؛ فالتفصيل لا يكون إلّا للموضوع الذي تمدّدت الفكرة فيه بداية ونهاية، والفكرة هي الفكرة، والموضوع ارتقاء لا يكون إلّا المفسّر للفكرة إيضاحا.

فبعد أن تطوّر الإنسان من حياة الفطرة والتقليد إلى حياة الإنباء والفكرة، أصبح يُبدع استكشافا، وليس خَلقا؛ لأنّ المخلوق لا يَخلق، ولكنّه في دائرة الممكن يكتشف المخلوقات، ثمّ يكتشف منها أسرارا كانت مجهولة؛ فيكتشفها بحثا، وتأملا، واستنباطا، واستقراء، ثمّ يوظّفها بما يعود عليه بالمنفعة، وهكذا هي الحياة والإنسان فيها يتطوّر بالفكرة، ومع ذلك لم يكن التفكير كلّه مؤسّسا على استنباط الفكرة ارتقاء، بل هناك من الفكرة ما يؤدّي إلى السُّفلية والانحدار.

ومع أنّ الفكرة تولد في العقل البشري بداية بمستفزّات خارجية، فإنَّها بعد أن تولد منه إنتاجا تصبح وفقا للقدرة قابلة للانتقال من عقلٍ إلى عقلٍ

مع وافر التأثير، سواء أكان تأثيرا موجبا أم سالبا، وعندما تكون الفكرة بنائية تدفع المتلقِّين لها إلى الارتقاء، ولكن إن كانت هدّامة؛ فستدفع بمتلقيها إلى ارتكاب الأعمال الدُّونية. ومع ذلك؛ فالعيب لا يلاحق الفكرة، بل العيب يلاحق من كان من ورائها (من أوجدها)؛ الذي فكّر فيما يضرّ في الوقت الذي ينبغي أن يفكّر فيه فيما يفيد وينفع، وهنا تكمن العلّة، أي: تكمن العلّة في أصحاب الفكرة الهدّامة سواء الذين أنتجوها، أم أولئك الذين سوّقوا لها ووظّفوها.

ومع أنّ الفكرة في دائرة الممكن (بنائية أو هدمية)، فإنَّها بين هذا وذاك، يمكن أن تكون (إصلاحيّة)، وهذا يعني: أنّ الفكرة البنّاءة تصحّح أخطاء الفكرة الهدَّامة متى ما كان الحوار والجدل بين النَّاس موضوعيّا، ولا إمكانية أن تكون الغلبة للفكرة الهدّامة كلّما ساد الحوار والجدل منطقا (حُجّة بحجّة)، ولذلك؛ فالمعلومة الصّائبة تصحّح المعلومة الخاطئة كلّما طرأت؛ لأنَّ أثر الفكرة اليائسة يصحّح أو يعالج بالفكرة المملوءة أملا؛ فالفكرة الأمل تحفّز على البقاء المرضي، وتدفع تجاه المستقبل الأكثر إرضاء.

والفكرة كونها مجرّدة؛ فلا علاقة لها بالاقتناع من عدمه؛ فالاقتناع من عدمه مسؤولية من ينتج الفكرة، أو يتبنّاها، أو يأخذ بها من صاحبها أو متبنيها؛ فالعقل السّليم في معظم الأحيان يأخذ بأحسن الفكرة، والعقل العليل في معظم الأحيان يأخذ بأسوائها ومع ذلك فللفكرة الحسنة مسوّقون، وللفكرة السّيئة مسوّقون، ومتى كان المسوّق على مقدرة إقناعية راجت فكرته حتى وإن كانت هدمية، وإن لم يكن له مقدرة إقناعية انكمشت فكرته وإن كانت بنائية، وهذه العلاقة هي بالتّمام علاقة بين من يسعى إلى الارتقاء، وبين من يسعى للدّونية والسُفلية، أي: فمن أراد ارتقاء؛ فعليه أن يأخذ بفكرة الارتقاء نهضة وتقدّما، أمّا من أراد سُفلية؛ فأفكارها في الأسواق الهدّامة كثيرة.

ولذلك؛ تعدّ الفكرة ارتقاء مصدرا للرّؤية البنائية، سواء أكانت رؤية فكريّة (تتعلّق بالنّظم والقوانين ورسم السياسات، وما يؤدّي إلى الإصلاح وبلوغ الحلّ) أم أنّها كانت عملية، (تتعلّق بالاقتصاد والتجربة والبناء والإعمار)؛ فالفكرة سواء أكانت نظرية أم عملية، تخلق جدلا بين منظِّر، ومسوّق، ومؤيّد، ومعارض، وتابعين مختلفين.

وعليه:

الفكرة حرّة، لا تُسجن وإن سُجن أصحابها ومسوّقوها، إنّها مولود العقل الذي فكّر في إيجاد كيفية تسمح له بالتمدّد داخل حدوده أو خارجها على حساب الغير، ثمّ من بعدها فكّر فيما يخالفها غاية؛ فأوجد كيفية تكبح السّلوك وتقيّده متى ما تمدّد على حساب الغير. ذلك لأنَّ الفكرة من طبيعتها التمدّد بين العقول، كما تمدّدت ارتقاء من النّظر إلى الخَلق، إلى البحث عمّا يُمكّن من معرفة الكيفيّة التي هو عليها، وذلك بغاية البحث ارتقاء عمّا يمكّن من معرفة المشاهد (هو كما هو)، ويمكّن من معرفة المعجز (آية بعد آية)، ثمّ يمكّن من بلوغ معرفة المستحيل مستحيلا، وهكذا هي الفكرة تتمدّد بين أيدينا ارتقاء.

فنحن بني آدم عرفنا أنّ الشيء في أساس خلقه قد خُلق من غير موجود، وعرفنا أنّ بلوغ المستحيل مستحيل، وعرفنا نشوء الشيء من الشيء معجزة، وعرفنا أنّنا نعرف ما عرفنا ارتقاء، ثمّ عرفنا أنّنا في حاجة لمعرفة المزيد.

ومن ثمّ؛ فالفكرة لا تخلق الشّيء، ولكنّها تستكشفه، ولا علاقة لها بالخَلق؛ فالخَلق لم يكن من الفكرة، ولا من المفكّر. الخَلق من العلم، وبالأمر كن، ومن هنا؛ فالخالق لا يفكّر، بل الخالق يعلم كلّ شيء؛ وفي المقابل الذي يفكّر هو الذي لا يعلم، ولهذا يفكّر ويبحث بغاية أن يعلم.

والفكرة كمفردة تتشعّب فكرا، فتتمدّد في شؤون الموضوع الذي يحملها في ثناياه فروعا؛ فهي مثل النّواة التي تغرس في التّربة والمناخ المناسبين لها؛ فتنمو شجرة ضاربة في الأرض وجذعها إلى السّماء فروعا متفرّعة، أي: تتفرّع الفكرة الواحدة فكرا متعدّدة التفاصيل حتى يكتمل الموضوع رسالة أو رؤية. بمعنى: تتعدّد الفِكَر المتفرّعة من الفكرة بما يمكّن من استيعاب الموضوع فِكَرا مفصّلة.

وتعدّ الفكرة قاعدة التنظير، فلسفة وسياسة واقتصادا واجتماعا، أمّا الدين فلا تنظير فيه؛ فهو لا يكون إلّا من خالق؛ لأنّ الدّين لم يبنَ على الفكرة، مع أنّ الفِكَر الثّمينة لا تستمدّ إلّا منه، أي: كلّ شيء يؤسّس على الفِكَر، لا يكون إلّا من مفكّر، والدّين ليس كذلك، ولهذا؛ فلا فكر ديني كما يعتقد البعض، بل الدّين لا يكون إلّا علما من عليم، ولهذا؛ فهو لا يستند على الفكرة، بل يستند على المعجزة التي تتنزّل نبأ ورسالة تنسب لخالقٍ، ولا تنسب لمفكر.

مرحلة تطوّر الفِكَر:

تعدّ الفِكَر من إنتاج العقل؛ ويعدّ الفِكْر من إعماله، ولأنّ الفِكَر هي مجموع الفكرة؛ فهي على الكثرة التي في حاجة لأن تصنّف بين ما يؤدّي إلى الارتقاء، وبين ما يؤدّي إلى الانحدار، ذلك لأنَّ الإنسان سواء أكان هو مصدر الفكرة أم متلقيها؛ فهو المخيّر قبولا، أو رفضا، أو حيادا.

ولأنّ الإنسان مخيّر فيما هو ليس بمستحيلٍ؛ فهو يفكّر كما يشاء، دون أن يتجاوز الحقائق والشّواهد الدّالة على الوجود، سواء أكان وجودا مستحيلا، أم معجزا أم ممكنا؛ فالإنسان لا ينبغي أن يغفل عمّا يمكّنه من تطوير فِكْره، بغاية تنشيط إعمال فكره ليكون عقله متهيئا ومتأهبا للاستنباط من المجرد والمعجز، والاستقراء من المشاهد والملاحظ، وهذه من صفات العقل المتدبّر

أمره. كما أنّه لا ينبغي أن يغفل عمّا يمكّنه من تطوير فِكَره (مجموع الفكرة) أي: لا ينبغي أن يتوقّف عند حدود إنتاج الفكرة، بل ينبغي أن يتجاوز ذلك إلى ما يمكّنه من تطوير الفكرة بالفكرة حتى يبلغ تطوير ما بلغه من فِكَر. ولهذا، فالفِكْر، هو: إعمال العقل، أما الفِكَر: فهي إنتاج العقل.

ومع أنَّ الإنسان خُلق على التّسيير فيما لا طاقة له به، فإنَّه كذلك خُلق على التخيير فيما لا تسيير فيه؛ فهو بالنّسبة للمستحيل والمعجز مسيّر، أمّا بالنّسبة لدائرة الممكن فهو مخيّر بين متوقّع وغير متوقّع وفقا للإرادة والمقدرة.

فبمرور الزّمن كان التكاثر البشري بين اختلاف وخلاف حتى أصبحت الهوة بين النَّاس تتسع صداما ونزاعا واقتتالا؛ فبعث الله الأنبياء والرُّسُل مبشّرين، ومنذرين، ومحرّضين، وداعين للكلمة السّواء، ومع ذلك كفر من كفر، وأشرك من أشرك، وآمن من آمن، ومن هنا، اتخذ الاختلاف والخلاف أوجها جديدة بين من يؤمن بالله ومن يكفر به أو يشرك، حتى وُصف هذا الصّراع بأنّه الصراع بين (الخير والشّر).

ولسائل أن يسأل:

ومن الذي بذر بذرة الخلاف والاختلاف؟

أقول: بذرة الاختلاف بذرة خَلق، خُلق الإنسان عليها؛ فكانت من فطرته وفقا لمشيئة الرّب، {وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاس أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ}[59].

ولأنَّ الرّب جعل النَّاس مختلفين خَلقا؛ فهو بلا شكّ يريدهم على الاختلاف بقاء إلى النّهاية، ولذلك سيظلون على الاختلاف حتى النّهاية،

[59] هود 118، 119.

ولا إمكانية لتبديل خلق الله، {فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاس عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ}[60].

ولأنَّ النَّاس مجبولون على الاختلاف فطرة، فهل الرّبّ يجعل خلقه على ما يسيء لِفطرة صُنعهِ؟

أقول:

لو أنّ الله خلق النَّاس بلا اختلاف لكانوا على الكمال، وهذه من صفة الله وحده، أي: لو لم يُخلقوا على الاختلاف ما كان أحد في حاجة للآخر، ولولا الاختلاف ما كان التنوّع مغريا، ولو لم يكونوا مختلفين ما كان للأمومة معنى، وللأبوة معنى، ولا للأخوة والعمومة والغير معنى، وهكذا، ليس الذّكر كالأنثى، ولأنّهما كذلك كان للمودّة دلالة ومعنى، ولهذا، كان الاختلاف بين النَّاس رحمة؛ فينبغي أن يسود بينهم رحمة.

إذا، لو لم يكن الاختلاف فطرة بين النَّاس ما كان العقل متدبّرا؛ فالاختلاف خلقا هو أساس الوحدة بين النَّاس، وأساس التذكّر والتدبّر والتفكّر، أي: لو لم يكن النَّاس مختلفين لكانوا آحادا، وليس أزواجا، وجماعات، وشعوبا.

ولهذا؛ فلاختلاف ارتقاء لا تضاد فيه، لكونه الاعتراف بالخصوصية (أنا وأنت)؛ فاللون الأسود لا يكون ضدّ اللون الأبيض، وما الاختلاف بين الألوان إلّا زيادة الجمال جمالا؛ فالألوان مع أنّها تتعدّد جمالا، فإنَّها عندما تُنسج بساطا تلاحظ أنّها أرقى بكثير عمّا كانت عليه قبل أن تُنسج في وحدة من الجمال.

---

[60] الرّوم 30.

والإنسان لكونه خُلق في أحسن تقويم فهو بدون شكّ إنسان واحد، ولكنّه لم يكن نوعا واحدا (ذكرا وأنثى)، ولم تكن قدراته وظروفه ومعارفه متساوية؛ فالاختلاف تنوّع ألوان، وأشكال، وآراء، ومعارف، ومع ذلك؛ فالتّشابه والتّماثل ارتقاء لا ينقطع؛ فالنَّاس من بعد الرّسل لو شاء الله ما اقتتلوا، ولكن لأنّهم خُلقوا على الاختلاف، اختلفوا ثمّ تخالفوا على ما جاءت به الرّسل؛ فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ ارتقاء، وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ سُفلية. ولو لم يختلف النَّاس بما اختلفوا به لكانت الحياة ذات وجه واحد، وطعم واحد، ولون واحد، ورؤية واحدة؛ وهذا الأمر يجعل الحياة مُملّة وكأنّها بلا مستفزّات، وبلا مغريات، وبلا طموحات، وبلا منافسة، وبلا أمل (حياة لا تشدّ الرّغبة إليها).

أمّا الخلاف فيسود بين النَّاس عندما يرى كلّ طرف منهم أنّه صاحب الحقّ الوافر، وغيره لا حقّ له، أو ليس له إلّا حقٌّ منقوص؛ فتُرفع الأصوات على الأصوات وكأنّ الأطراف المتخاصمة لا تعرف أنّ الحقّ دائما أعلى من أيّ صوت، ولأنّه كذلك فلا داعي لرفعه، ولذا فاترك الحقّ يعلو ارتقاء على كلّ شيء بما فيه صوتك، وإن كان خصمك على حقّ فلا ترفع صوتك عليه، وإن رفعته فلا تستغرب أن يأتي اليوم الذي تُلجمك فيه الحُجّة، ويكون صوته بين النَّاس وعلى الملأ أكثر منك حجّة وارتقاء.

ومن ثمّ؛ فالخلاف لا يكون إلّا بما تعمل أيدي النَّاس، أمّا الاختلاف فالنَّاس مفطورون عليه خَلقا، {فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاس عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ}[61]. ولذلك؛ فالاختلاف رحمة، أمّا الخلاف فنقمة، لا ينبغي الالتجاء إليه إلّا من أجل ما يرسّخ قيمة الإنسان وكرامته وسلامة حياته ومعتقده وحرّيّته.

[61] الروم 30.

ومن ثمّ؛ فالخلاف مع المخالف لما يجب يعدّ ارتقاء، والخلاف معه على ما لا يجب يعدُّ انحدارا؛ فالإنسان مع أنّه خُلق في أحسن تقويم فإنَّه إذا لم يفكّر فيما يفكِّر فيه قبل أن يحدث قد يجد نفسه في دائرة الممكن في مواجهة مع غير المتوقّع، ومع ذلك ليس له بدّ إلّا أن يفكّر حتى يعرف من جديد كيف يفكّر ارتقاء، وإلّا ليس له إلّا الانحدار الذي تكمن فيه معطيات الألم.

فالتفكير ارتقاء يُحدث النُّقلة المأمولة تقدّما، وما دونه يجعل الفكرة غير فاعلة، والتفكير غير مُفعَّل.

ولأنّ العلاقة متداخلة بين التفكير والفكرة؛ فمن الصّعوبة تناول أحدهما بمنعزلٍ عن الآخر؛ فالتفكير يولِّد الفكرة التي متى ما كانت راقية أضافت معارف جديدة نافعة، ومتى ما كانت على غير ذلك تؤدّي إلى ما يترتّب عليه ألما.

ولذا؛ فمن لا يفكّر في مستقبله مع المختلفين عنه لا يمكن له أن يسعى لتأمينه، ومن لم يفكّر في صناعة مستقبل أفضل لن يجد لنفسه مكانة يتبوّؤها بين النَّاس، ولن يكون له مستقبل مقدّر، بل قد يجد نفسه على الرّصيف متسوِّلا، أو سجينا بين الجدران بأسباب فقدانه مشبعات الحاجة المتطوّرة، وعدم معرفته كيف يفكّر تعاونا مع المختلفين، فينبغي أن يفكّر فيما يفكّر فيه قبل أن يقرّر، وعليه ألّا يغفل عن اختلاف الغير عنه، وأن يعلم أنّه مثلما هو مخيّر هم مخيّرون، {فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ}[62].

وبما أنَّ الإنسان قد خُلق مخيّرا فلا استغراب من الاختلاف، بل الاستغراب ألّا يكون مختلفا، فالنَّاس بطبيعتهم يرضون عن تخييرهم، ولكن البعض صدورهم من الاختلاف تضيق، وهنا تكمن العلّة التي لا تتمشّى مع

[62] الكهف 29.

الفطرة التي خُلق الإنسان عليها مخيّرا بين اختلاف وخلاف، وهكذا هي الحياة؛ جدل من بعده جدل.

تطوّر الفِكَر جدلا وحجّة:

مع أنَّ الإنسان خُلق من طين، فإنَّه خُلق معدّا للتفكير؛ فكانت الفكرة نتاج عقله ومن إعماله، وأوّل فكرة كانت هي من عقل أوّل من خُلق في أحسن تقويم (آدم)، ثمّ تعدّدت الفِكَر بتعدّد البشرية وبتعدّد ما تفكّر فيه، ولهذا أصبحت فِكَرا بعد أن كانت فكرة. أي: في هذا المسار الأمر يتعلّق بالفكرة التي أصبحت بتكاثرها فِكَرا، ولكن هذا لا يعني أنّ الأمر لا يتعلّق بالفِكْرِ الذي هو مكمن التفكير؛ فالفِكْرُ من معطيات العقل، وفي المقابل الفكرة لا تكون إلّا من التفكير وإنتاج العقل، وفيما يُفكَّر فيه. ولذلك، يؤسّس التطوّر على قاعدتين:

الأوّلى: تطوير الفِكْرِ بما يمكّن الإنسان من التفكير، وهو يُفكّر فيما يُفكّر فيه قبل أن يتّخذ القرار تجاه ما فكّر فيه بداية حتى يُحسم الأمر تطوّرا.

الثانية: تطوير الفكرة بفكرة أكثر ارتقاء، حتى تتولّد الرّؤى المتجاوزة للمألوف والمعتاد التفكير فيه.

وعلى هاتين القاعدتين تطوّرت رؤى البشريّة وهي على التخيير بين اختلاف وخلاف، ولا حاسم للأمر إلّا المحاجّة والمجادلة، أي: لا حاسم للأمر إلّا الالتقاء الذي فيه تُدحض الحُجّة بالحُجّة، وحتى إن امتلأت الحجج والجدل شدّة، لكنّ الشدّة الجدلية ضرورة؛ فهي لا تكون إلّا من أجل الحرص، وهي كذلك، لا تكون إلّا بغرض التسوية لما سلف من انحدار وسُفلية، وهي بغاية الارتقاء عن كلّ ما يؤدّي للفرقة والخصام. ولهذا؛ فمن أجل التطوّر والارتقاء

لا يجادلك إلّا من هو حريص عليك، ويأمل ألّا تظل تائها عن ممارسة وتأدية ما يجب أن يكون من أجلك وأجل من تربطك به علاقات.

ولذا؛ فأصحاب الحُجج تطوّرا يسعون إلى إحداث النُّقلة، والارتقاء بالنَّاس إلى ما يجعلهم قمّة، وفي المقابل من يخالفهم بغير حُجّة يشدّ إلى الخلف إعاقة، وبين هذا وذاك فلا استقرار، ولا أمن، ولا ارتقاء ولا تطوّر لأحد ما لم يؤخذ بالحُجّة ارتقاء واستيعابا، ولا استثناء لأحد بأيّة علّة إلّا إذا كان أحد علّة في ذاته، ولا استغراب من هذا الأمر، حيث لكلّ قاعدة شواذ، ومع ذلك، الحجّة الجدباء لا تصمد أمام الحجّة الحلّ التي تعلو بأصحابها تطوّرا وارتقاء إلى ما يمكّن من المعرفة، التي بها سترتق الأرض والسّماوات كما كانت أوّل مرّة.

ولأنّها المجادلة تطوّرا وارتقاء؛ فهي لا تكون إلّا بالتي هي أحسن، {وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ}[63]؛ أي: لا ينبغي أن تكون المجادلة بالتي هي أسوء؛ فالأسوء لا يقود إلّا للخلاف والصّدام والاقتتال، ومن هنا، يلد الألم ألما.

وحتى لا يسود الألم بين النَّاس، ينبغي الأخذ بمبدأ المجادلة حرصا وتطوّرا وارتقاء، ويجب أن تبدأ المجادلة مع المختلفين من حيث هم عليه اختلافا، لا من حيث ما يجب أن يكونوا عليه اتفاقا؛ فما ينبغي أن يكونوا عليه اتفاقا هو المأمول الذي من أجله تجري المجادلة بالتي هي أحسن، أمّا المجادلة غِلظة فلا تكون إلّا مع من يستغلظ على الحقّ بغير حقّ، وهنا يصبح المستثنى من جنس المستثنى منه (غلظة بغلظة) ومع ذلك؛ فللعفو والصّفح مكانة لا يبلغها إلّا من تدبّر أمره حكمة.

---

[63] العنكبوت 46.

ولأنّ الجدل بالتي هي أحسن وسيلة للارتقاء فينبغي أن تكون أساليبه على الترغيب والتشويق والنّهي والرّهبة والتحذير والإنذار مع مراعاة الفروق الفردية بين المجادلين ارتقاء؛ ففي الجدل الرسائل تُرسل بين المجادلين لكلٍّ حسب ما هو عليه من معرفةٍ، وثقافةٍ، ومعتقدٍ، ومنطقٍ، مع عدم إغفال أهمية الحكمة في إدارة الجدل؛ فالإنسان مع أنّه خُلق من نطفة، فإنَّه خصيم، ولهذا؛ فهو مجادل، ولأنّه كذلك؛ فمن حقّه أن يجادل، ولكن حرصا وتطوّرا وارتقاء ينبغي أن يجادل بالتي هي أحسن؛ فهو كلّما جادل بالتي هي أحسن كسب قلوب النَّاس، وفي المقابل متى ما استغلظ عليهم استغلظت قلوبهم عليه.

ولذلك؛ فالجدل تطوّرا وارتقاء لا ينفصل عن الحُجّة، مع أنّ الحُجّة أساسا هي معلومة مستقلّة بذاتها، وستظل إلى أن تُستخدم أو تُوظّف جدلا، بما يقرّ حقّا أو يؤدّي واجبا، أو يُمكّن من حمْل مسؤولية، ومن ثمّ، فالحُجّة تُفحِم أو تُلزِم من كان على غير حُجّة حتى يُغيّر ما بنفسه، ومن هنا، تلد الموعظة والعبرة ارتقاء. وفي المقابل الجدل غِلظة يدخل المجادلين في حلقة الصّدام الذي كلّما انتهى بدأ.

ولأنّ الجدل بالتي هي أحسن جدل حُجّة؛ فينبغي أن يكون على اللين مع تبيان الدّليل والبرهان شاهدا بين أيدي المتخالفين، ولنا في إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام القدوة الحسنة حينما جادل أباه آزر وهو يخاطبه بقوله، {إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا}[64]؛ فقوله وهو يجادله رأفة وودّا: (يَا أَبَتِ) وهو يكررها مرات (يَا أَبَتِ)، هي: بهدف صحوة أبيه آزر من الغفلة التي

[64] مريم 42 . 45.

ألمت به، والجهل الذي استحوذ على عقله، وبخاصّة أنّ إبراهيم لم يخفِ علمه وحرصه ومحبّته له، ولذلك؛ كان ارتقاء إبراهيم مؤسّسا على عدم الإكراه؛ فالإكراه هو: حجّة من ليس له حُجّة، {وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاس حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ}[65].

ولأنّه الجدل ارتقاء؛ فهو لا يكون إلّا عن صبر، وسعة صدر، بهدف استيعاب المختلفين، وأخذ الحجر من أيديهم التي به امتلأت، ولذا، ينبغي أن يمتلك المجادل المقدرة على استجلاب الدلائل والبراهين لإثبات قضيّته، وفكّ القيد عنها، مع فكّ اللبس والغموض عمّا يستخدمه من مفاهيم؛ وفي هذا الشأن أتذكّر تلك المجادلة التي جرت بين النبي إبراهيم ومن حاجّه في ربّه، {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ}[66]؛ فاللبس في ذهن من جادل إبراهيم في ربّه كان متعلّقا بمفهوم الإحياء والإماتة؛ فإبراهيم قال: (رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ) وفي المقابل كان قول المجادل له: (أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ). واللبس هو: أنّ إبراهيم يجال بحجّة من يحيي ويميت، وفي المقابل فهم المجادل أن الإماتة هي القتل، ولهذا أجابه بقوله: (أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ) أي: وكأنّه يقول: إذا أردت أن أقتل أحدا، قتلته، وإذا أردت عدم قتله تركته حيّا. ولكنّ الفرق كبير بين القتل الذي يكون على أيدي المتقاتلين أو القتلة، وبين الموت الذي لا يكون إلّا بيد الله.

ومن ثمّ؛ فالحُجّة يمكن أن تكون مُعجزة تفحم المجادل بغير حُجّة، {قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ

---

[65] يونس 99.

[66] البقرة 250.

الَّذِي كَفَرَ}[67]، وفي المقابل يمكن أن تكون حلّا، ويمكن أن تكون موعظة، ويمكن أن تكون عبرة، ويمكن أن تكون دليلا ملاحظا أو مشاهدا (قولا وعملا وفعلا وسلوكا) {وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا}[68].

وعليه:

فالجدل تطوّرا هو ما ليس بتفاوض؛ بل هو: التوجُّه للنّاس بالحُجّة تطوّرا وارتقاء، وهي الحُجّة التي لا تقبل التنازلات؛ لأنَّ الحُجّة ينبغي أن يؤخذ بها، أمّا التفاوض فلا ينتهي إلّا بتقديم التنازل الذي من ورائه تنازلات.

ولذلك؛ فالمجادلة تطوّرا وارتقاء فيها مكابدة وعُسرة، وهي في معظم الأحيان تستدعي تقديم المزيد من الحُجج الدّامغة التي لا تستفز أحدا، وبتقديم المزيد من الحجج ينبغي أن ينبهر الخصم بما يجذبه إلى الحقّ حُجّة بعد حُجّة.

ولذا؛ فالصّبر حُجّة المتجادلين؛ فعليهم به دون استرخاء؛ ولا داعي للقلق حتى وإن كانت الاستفزازات من ورائه، بل كلّما طال زمن التجادل والصّبر لم يفارق المتجادلين حُجّة بحُجّة كلّما اختنقت أنفاس من لا حُجة له.

ومن ثمّ؛ ففي المجادلة إصرار، وعدم إعطاء الفرصة لمن يريد أن ينهي الجدل قبل الوصول إلى نتائج مقنعة، أمَّا الحوار فقد لا تكون فيه مكابدة، والمتجادلون عندما يفقدون قواعد الرّكون إلى المحاجّة المنطقية، قد يضطرون إلى الخصام الذي لا طائل من ورائه إلّا الخلاف والفرقة. ومن هنا، يصبح كلّ شيء ممكنا سواء أكان متوقّعا أم غير متوقّع.

ولذا؛ فعندما تغيّب الحُجّة بين المتجادلين ارتقاء يصبح المجال بينهم مفسوحا للخصام والاقتتال، ومن ثمّ؛ فالجدل وما فيه من شدّة؛ هو منطق

---

[67] البقرة 158.

[68] يوسف 26.

السّلام، الذي إن لم يؤخذ به قد تصبح مصارف الدّم بين النَّاس في حاجة للمزيد.

ومن هنا؛ فالمحاجّة تطوّرا وارتقاء ليست نقاشا بلا دراية، ولا مفاوضات بلا خبرة ولا مهارة، بل المحاجّة تحاور يتكئ على حُجج بيّنة بغرض تنقية الشوائب التي نُسجت بين المتخالفين أو المختلفين، الذين يميلون عن صائبة المطلب والقول بعلل فيها علّة.

ومع أنّ الإنسان ارتقاء قد خُلق في أحسن تقويم، فإنَّه خُلق ليجد نفسه بين قيم حميدة وفضائل خيّرة، وبين استفزاز الحاجات المتطوّرة في مقابل قصور مشبعاتها؛ ممّا يدعوه إلى قبول التكيّف بتنازلات، أو أن ينتظر زمن التوافق الذي قد يطول ويجعله على غير أملٍ.

ومع أنّ الإنسان خُلق على الارتقاء مقوّما، فإنَّه لم يُخلق نسخة واحدة وكأنّه أوراق سحب، بل لكُلِّ خصوصيته التي بها يتميّز عن غيره كما غيره يتميّز عنه؛ فالنَّاس مختلفون، ولكلّ بصمته الخاصّة التي لا تتكرّر، {وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاس أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ}[69]؛ فما أعظم هذه الآية (وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ)، أي: مع أنّهم من نفس واحدة فإنَّهم لا يتطابقون، وإن تماثلوا صفة؛ فهم مختلفون بصمة ومقدرة وتذكّرا وتدبّرا وتفكّرا، ولهذا؛ فهم يختلفون، وسيظلون مختلفين (وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ)، أي: أنّهم خُلقوا على الاختلاف الذي جعلهم في حاجة لحشد الطّاقات حيث لا إمكانية للتطوّر والبقاء بغير الاختلاف.

ولأنّهم خلقوا على الاختلاف فهم في حاجة لِما يجمع شملهم متى ما اختلفوا، أو تخالفوا؛ فالمحاجّة والجدل جهود تُبذل لإظهار الحقيقة التي لا تكون

[69] هود 118، 119.

إلّا بامتلاك السّند الذي يَحتكم به ويُحتكم إليه، ومع ذلك تختلف المجادلة عن المحاجة من حيث كون المجادلة تتمركز على التمسّك بالحُجّة دون تفريط ولا يأس ولا قنوط، أمّا المحاجّة فالأمر يقتصر على تقديم الحُجّة لتكون شاهدة على القضية، ولمن شاء أن يحكم بها عدلا؛ فليحكم[70].

[70] عقيل حسين عقيل، من معجزات الكون (الخلق ـ النشوء ـ الارتقاء) المجموعة الدولية، القاهرة، ص 169 ـ 228.

مراحل

الارتقاء قاعدة واستثناء

عبر التّاريخ والمنحنى التكراري للسّلوك والفعل البشري بين هبوط وصعود؛ فمع أنّ الإنسان خُلق ارتقاء (سويّا) على صراط مستقيم، فإنَّ سلوكه وفعله انحدرا إرادة عمّا خُلق عليه من ارتقاء واستقامة؛ فالإنسان لم يُخلق على الانحراف والحيوانية، بل خُلق في أحسن تقويم، عقلا وصورة، ولا مثيل له، ومع ذلك، انحدر دونية عمّا خُلق عليه من حسن قوام وتقويم، عندما خالف أمر ربّه الذي نهاه عن الأكل من تلك الشّجرة، ومن هنا نلاحظ أنّ النقطة الصّفرية التي بدأ منها رسم المنحنى التكراري لسلوك الإنسان وفعله لم تكن من دونية إلى علوٍّ ورفعة، بل كانت من علوٍّ إلى دونية، وهذه أوّل مخالفة (أوّل استثناء) والتي أعقبتها استثناءات كما هو مبين في الشكل رقم (3) الذي فيه الخط الأفقي يمثل المستوى القيمي، والخط العمودي يمثل المستوى الخَلقي.

ومع أنّ السّلوك والفعل أخذا الاتجاه إلى الدّونية، ولكنّهما توقفا عند الخط الأفقي للقيم لحظة استغفار آدم عمّا ارتكبه من فعل وأقدم عليه من سلوك وعمل؛ فكان له الارتقاء حتى اصطفاه الله نبيًّا على الملائكة والجنّ والإنس (زوجه). ثمّ بقيت تعاليم آدم من بعده ارتقاء كما أنبأه الله وأعلمه بها بين أيدي بنيه رفعة وارتقاء، إلى أن انحدر أحدهم قيما يوم أن قتل أخاه بغير ذنب (الاستثناء الثاني).

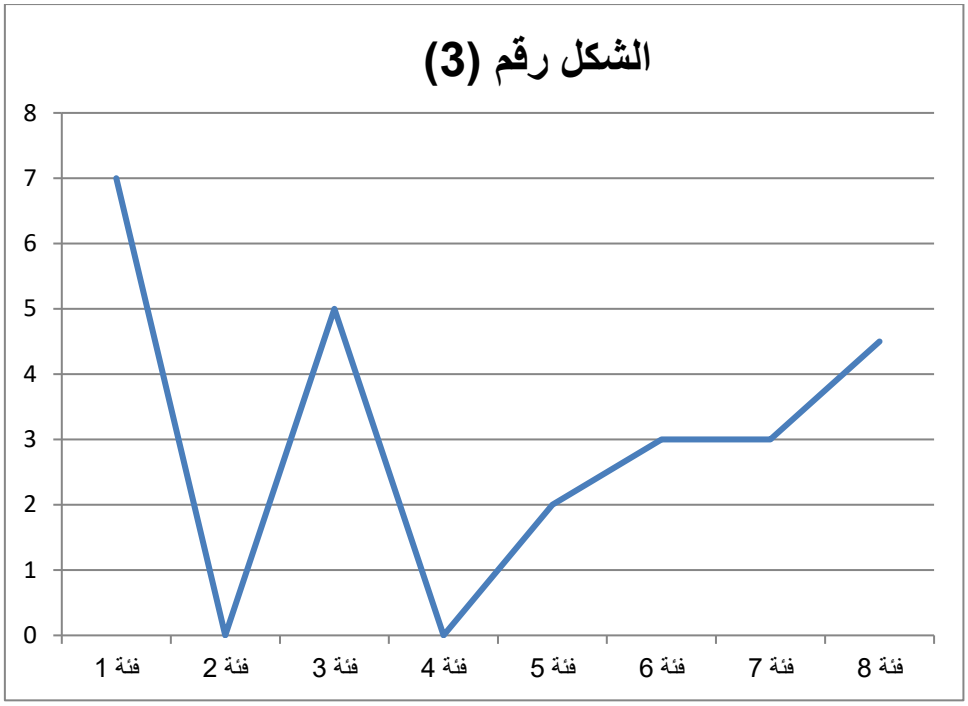

وظلت الحياة بين بني آدم بين من يرى الخير قيمة؛ فيتّبعه، وبين من لا يراه كذلك؛ فيخالفه؛ فوُلد الصّراع بينهم يوم أن ظهر الأنا على حساب الآخر، ثمّ تعاظم بتعاظم بني آدم عددا وشهوة وحاجة، بداية من حياة الفطرة التي عاشها أبوهم جنّة، ثمّ حياة الاختيارات المتنوّعة التي استوجبت إيجاد نُظم تنظم العلاقات بين المختلفين والمتخالفين على ظهر الدّنيا؛ فكانت الحياة بينهم فوارق، عبيدا وسادة، فقراء وأغنياء، بدوًا وحضرًا، طبقة عليا وطبقات دنيا، إقطاعيين وخدما، ولهذا، ظل المنحى التكراري للقيم بين المختلفين والمتخالفين على غير استقرار (بين قاعدة واستثناء)، بالرّغم من بعث الأنبياء والرّسُل لأقوامهم وشعوبهم وأممهم وللكافّة، وسيظل الخلاف بين النّاس ما ظلّت الحاجة والجهل والإقصاء والتهميش والهيمنة والظلم والعدوان.

وفي المقابل ستطوى الهوة بين النّاس إشباعا للحاجات المتطوّرة، مع عدالة تُمكّن من ممارسة الحقوق، وأداء الواجبات، وحمل المسؤوليات، وتحفّز على المزيد من البحث العلمي. وإلى جانب تلك المراحل الخَلقية (الفطرية)

جاءت بوادر أخرى كان النّاس فيها بين ارتقاء ودونية (بين قاعدة واستثناء) فكانت مراحل تكوين الدّولة.

. مرحلة العبودية:

ظهرت هذه المرحلة بعد انتهاء مرحلة الصّيد، وظهور الملكية الخاصّة والعمل في الزّراعة؛ فتكوّن المجتمع المشاعي الذي قبل البعض فيه التكيّف ضرورة (استثناء) حيث تحكّم الحاجة وتسلّط الملّاك؛ فظهرت قيم جديدة على حساب كرامة الإنسان الذي قبِل العبودية، وارتضى أن يبيع نفسه للغير (جهدا ووجودا) حتى أصبحت أسواق العبيد منتشرة بيعا وشراء.

ومن ثمّ، تطوّرت مرحلة العبوديّة زيادة في الدّونيّة من بيع الجهد، إلى بيع الأبناء، ثمّ إلى بيع النّفس، وهنا يكمن الاستثناء، في مقابل القاعدة (إنّ الإنسان لم يُخلق عبدا). ولهذا تظل العبودية استثناء في مواجهة الحرّية قاعدة.

وتنوّعت أسواق العبوديّة بين من قَبل بيع بنيه ونفسه، أو بيعهم جميعا من قِبل مالكهم دون أن يكون لهم رأي حتى في الثّمن الذي سيباعون به سوقا، وكذلك كان أسرى الحروب عبيدا يباع جهدهم ثمّ يباعون.

ومع أنّ القاعدة الخَلقيّة تستوجب صون كرامة الإنسان، فإنَّ الاستثناءات تعدّدت في زمن العبودية، وقوّضت الحريّة؛ فبعث الله الرّسُل آمرين بالمعروف وناهين عن المنكر، ومحرّضين على تحرير العبيد، {وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَا وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ إِلَّا أَنْ يَصَّدَّقُوا فَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ

مُؤْمِنَةٍ}[71]، ولأنَّ الحرّية هي القاعدة، والعبوديّة هي الاستثناء جاءت الرّسالات تنزيلا مرسّخة للقاعدة ومقوّضة للاستثناء.

. مرحلة الإقطاع (feudalism):

بعد أن كانت الأرض وفقا للقاعدة الطبيعية فسحة للنّاس؛ تنقلا ورعيا وصيدا، أصبحت إقطاعيات تحت سيطرة من يمتلك القوّة والنّفوذ استثناء، فيها جهد المنتجين على حساب ممارسة الحريّة يباع ببيعهم في أسواق المزاد عبيدا، وفيها حيازة الأرض تتّسع، وكذلك التمدّد على حساب الغير سلما وحربا، وفيها الولاء للأشخاص والتكيّف معهم علّة من عِلل الحاجة، ذلك هو الإقطاع الذي يمثّل مرحلة من مراحل تأسيس الدّولة اقتصاديًّا واجتماعيًّا وسياسيًّا وحربيًّا؛ فالإقطاع أساسه امتلاك القوّة، ولا مجال فيه لأن يتمكّن أهل المنطق والقيم والفضائل الخيرة المستمدّة من الدّين من المنافسة والسيّادة؛ فكان حكم الاستثناء بدلا من حكم القاعدة الطبيعية (النّاس خلقوا أحرارا فليبقوا أحرارا)، ولذلك يعد الإقطاع استثناء لكونه وجودا على حساب الغير (جهدا، وملكيّة، وحرية).

مرحلة رأس المال:

رأس المال امتلاك ثروة من بَلغها بلغ التمكّن من توظيف جهد وأفكار الغير استثمارا أو استغلالا (سلبا أو إيجابا)؛ لأنّ الغنى غاية النّاس، وهذه قاعدة، أمّا الفقر فلا أحد يأمله وإن حدث؛ فهو الاستثناء (الشذوذ عن القاعدة)؛ ولذلك فالنّاس ارتقاء يأملون الغنى، وفي المقابل انحدارا يعيشون الفقر والألم. ولا عيب في امتلاك رأس المال، بل العيب أن يتمّ استغلال النّاس به، ومن ثمّ؛ فالعيب لا يلحق رأس المال، بل قد يلحق الكيفيّة التي بها أصبح

[71] النساء 92.

رأس مال؛ فإن كان شرعيّا غير منهوب بأيّ أسلوب من أساليب التحايل والنّهب فهو من حقّ مالكه عملا أو إرثا، وهو لا يتعارض مع قاعدة التملّك، أمّا إذا كان نتيجة استغلال جهد الغير، أو على حساب وجودهم بأيّة علّة؛ فهو العِلّة في ذاتها.

ومن ثمّ؛ فالغنى ارتقاء غاية عظيمة، ينبغي السّعي إليها جهدا وعملا واستثمارا، على ألّا يكون على حساب جهد الآخرين، ولا على حساب حقوقهم.

ولأنّ الإنسان غايته الارتقاء حتى بلوغ الجنّة؛ فمهما بلغ من النّعيم فهو لايزال في حاجة لنعيم أعظم؛ ومن هنا فعليه أن يعمل كلّ ما من شأنه أن يمكّنه من بلوغ الجنّة نعيما وافرا، دون أن يغفل عن حقوق الآخرين فيما يمتلك من ثروة (زكاة وصدقة وضريبة)، إلى جانب عدم غفلته عن أهميّة الفضائل الخيّرة والقيم الحميدة في تنظيم العلاقات، وبناء الدّولة الوطنيّة.

وعلينا أن نميّز بين الاستغلال والاستثمار؛ فالاستغلال لا يكون إلّا على حساب جهد الغير، أمّا الاستثمار فلا يكون إلّا برأس مال مضاف إلى الجهد المشترك مع جهود الآخرين لكونهم جزءا من العملية الإنتاجية والاستثمارية، وهنا، يصبح العائد على ذوي العلاقات الاقتصادية وفقا للمستثمَر (ثروة وجهدا)، وهذه هي القاعدة، أمّا الشذوذ عنها فلا يكون إلّا استثناء بلا مبررات، وبخاصّة عندما تستغل الجهود من قبل من يمتلك الثروة بلا عدالة.

ومع أنَّ جذور النّظام الرّأسمالي ضاربة في تلك الفلسفة الرّومانية القديمة، التي رغبت امتلاك القوة وبسط النفوذ والسّيطرة، فإنَّها تطوّرت مع التاريخ من الإقطاع إلى البرجوازيّة ثمّ من بعدها إلى الرأسمالية المعزّزة للملكيّة الفردية وممارسة الحرّيّة.

ولأنَّ الغنى ارتقاءً رغبة بشرية؛ فبلوغه لا يعدّ شذوذا عن القاعدة، بل الشذوذ ألّا يعمل الإنسان ليكون غنيًّا، وله من رأس المال ما له مشروع.

فالرّأسمالية تبحث عن الرّبح بشتى الطّرق والأساليب المشروعة، وهذه قاعدة، وفي المقابل لا أحد يعمل بأمل تحقيق الخسارة، ولهذا فالخسارة هي: الشّذوذ عن القاعدة، ومن ثمّ فعلينا أن نميّز بين الخسارة والرّبح والرّبا؛ فالخسارة تسيء لرأس المال، وهي الاستثناء، وكذلك الرّبا استثناء لكونه نتاج الاستغلال وآلامه، أمّا الرّبح فهو القاعدة كونه الزيادة المشروعة، {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً}[72]، أي: من حقّ الإنسان أن يحافظ على رأس ماله، ومن حقّه ألّا يخسر، ولكن لا حقّ له أن يستغلّ جهد الغير بما يسيء لأحوال النّاس المعيشية والسياسية والاجتماعية، ومن هنا؛ فالقاعدة: (اعمل ما شئت من المشاريع المشروعة دون أن يترتّب على ما تُقدِم عليه من عمل ما يؤلم النّاس)، ومن حقّك أن تكسب وتنافس جودة دون استغلال الآخرين، أو أن تكون مكاسبك على حساب معيشتهم أو كرامتهم.

إذا؛ فالقاعدة: العمل المشروع أساس المكاسب والغناء، والعمل غير المشروع شذوذ عن القاعدة، وإن كانت من ورائه مكاسب وغنى.

المرحلة الشيوعيّة:

لقد عَبَرت الإنسانيّة التّاريخ بمراحل التغيير بين ارتقاء ودونية، وكأنّها لم تستفد من تجاربها، ذلك لأنَّها لم تستطع طي صفحات الاستثناء ولن، ولهذا ظل مُنحنى الارتقاء التكراري معرّضا للانتكاسات، وسيظل.

ومع أنَّ مرحلة الشّيوعية جاءت لاحقة على مرحلة الرّأسمالية، فإنَّها لم تلغها، ولم تحلّ محلّها، بل جاءت تنظيرات لمجموعة من المفكّرين على رأسهم

[72] آل عمران 130.

أنجل وماركس المرسّخان لمبادئ تأسيس الدّولة على قاعدة الملكية المشتركة لوسائل الإنتاج، وحكم الحزب الواحد، المحاط بطبقة البروليتارية، مع تفسيرهما المادّي للتاريخ، وتقييدهما للمنافسة الحرّة، واعتبارهما أنَّ الدّين قيد ينبغي أن يفكّ، كما أن تنظيراتهما ترى أنّ لكلّ فرد عمله وحسب حاجته، وليس حسب جهده، وأنّ الشيوعية تترسّخ بالقوّة وتعمّم اقتصادا وسياسية واجتماعا. ولكن بطرحهم هذا، كمن يقول: اقلبوا القاعدة استثناء، والاستثناء قاعدة.

ولأنّ المبادئ الشّيوعية تأسّست على مواجهة الإرادة (القاعدة) فهي قد تأسّست على الإكراه (الاستثناء)، ولذلك سيظل حكم الحزب الواحد وإدارته للدّولة حكما استثنائيا لكونه مخالفا لطبيعة المواطنة التي فيها الحقوق يجب أن تمارس عن إرادة، والواجبات تؤدّى عن رغبة، والمسؤوليات تحمل وإن كانت أعباء.

ومن ثمّ، يعدّ الحكم الشّيوعي حكما استثنائيا، من حيث مواجهته القاعدة التي لا ترى ارتقاء للدّولة إلّا بمشاركة مواطنيها سياسة واقتصادا واجتماعا، مع مراعاة الخصوصيّة للأفراد والجماعات والمجتمعات، ولا إكراه.

الفوضويّة في كلّ المراحل:

مع أنَّ الاستثناء خروج عن القاعدة، فإنَّ البعض لا يراه إلّا حلّا كما هو حال الفوضويّة التي تعدّ من وجهة نظر برودون حلّا للمشكل السياسي والاقتصادي والاجتماعي، وبخاصّة عندما تنكسر هيبة الدّولة وتحلّ محلّها الجماعات الحرّة التي لا قيود عليها سوى إرادتها ومشيئتها الخاصّة.

ولأنَّ الفوضويّة استثناء، والبعض يطالب بها حلّا؛ فهي عبر التّاريخ تهدّد الأنظمة والسّلطات، وتعدّ أسلوبا ضاغطا على مؤسّسات الدّولة، وهي

دائما بمثابة المعارضة غير الديمقراطية، لكونها خروجا عن الفضائل والقيم (خروج عن القاعدة).

وتتمركز فكرة الفوضوية على إلغاء الدّولة بهدف تحرير الفرد من قيودها، وقيود المجتمع بأسره، ثمّ يرى برودون أنّ ما يفسد الحياة الاقتصادية هو: نظام النقد والفائدة اللذين يؤدّيان ببعض الأفراد إلى استغلال الآخرين؛ فهو يدعو إلى استبدال هذه الأنظمة بعقود حرّة بين الأفراد والجماعات يتعهد الجميع على التمسك بها، ومن ثمّ يحلّ مكان الدّولة نظام اتحادي يقسّم السّكان بموجبه إلى جماعات سياسية صغيرة تنظم علاقاتها على أساس التعاقد الحرّ.

ويرى برودون أنّ الإنسان من طبعه يميل إلى التمسّك بالنّظام وقواعد العدل، وأن ميله هذا كفيل بتحقيق التفاهم والانسجام بين البشر، ولا مُفسد لذلك إلّا قيام الدّولة. ومن ثمّ، يعدّ كل مواطن مشروعا لنفسه، ولا داعي للمؤسّسات، ولهذا، قال الفيلسوف الألماني كاسبر شميدت: "لا يوجد شيء أعلى أو أسمى مني، إنّني أعلنها حربًا ضدّ كلّ دولة حتى ضدّ أكثرها ديمقراطية"[73].

ومع أنّ البعض يعتبر الفوضويّة نوعا من النّظام السياسي والاقتصادي والاجتماعي فإنَّه نظام خارج عن النّظام (شذوذ عن القاعدة).

ولأنّه شذوذ عن القاعدة؛ فسيظل شاذًا عنها، وملازما لها، وأينما حلّت حلّ معها جنبا إلى جنب، ومع أنّه الشذوذ عن القاعدة؛ ولكنّه المتكوّن من مجموع السّالب والموجب، ولذا فلا شذوذ إلّا في دائرة الممكن المتوقّع وغير المتوقّع (سلبا وإيجابا).

---

[73] رءوف عباس ، أوراق هنري كوبيل والحركة الشيوعية المصرية، ترجمة عزة كامل، الطبعة الأولى، سينا للنشر القاهرة 1988م.

ولأنّ لكلّ قاعدة شذوذا؛ فلا استغراب أن يتمدّد الشذوذ استثناء كلّما شاخت القاعدة. ومن هنا يعد الشذوذ موقظا للعقل انتباها بغاية إعادة الاستقراء وإضافة الجديد ارتقاء.

ولأنّه الشذوذ عن القاعدة فلا يمكن أن يكون حلّا، حتّى وإن كان على شيء من الإيجابية.

وعليه:

لم تكن مراحل تنظيم العلاقات البشرية منفصلة مرحلة عن أخرى؛ فهي مراحل تتداخل بلا قطيعة؛ فحيثما كانت القاعدة كان الشذوذ استثناء؛ فلو أخذنا الدّين على سبيل المثال: لوجدناه منذ أن خُلق الإنسان الأوّل وهو لم ينقطع تنزيلا في كلّ المراحل التي مرّت البشرية بها ارتقاء وانحدارا، وكذلك لو أخذنا حياة الفطرة أو التقليد أو حتى زمن الأساطير لوجدناها مازالت في الأنفس على قيد الحياة في أقوال البعض وفي أفعالهم وسلوكياتهم وأعمالهم، وفي كلّ المراحل، ولهذا، تستمدّ الخصوصية أعرافها وأديانها، وتُكتسب هويّتها جيلا بعد جيل، والاعتزاز يملؤها ثقافة.

وبمراجعة مراحل التطوّر والارتقاء البشري، نلاحظ أنَّ الانحدار قد التصق أوّل ما التصق بأوّل الخَلق الآدمي (آدم)، ثمّ التصق بأوّل أبنائه نطفة، ثمّ اتّسعت دائرة الانحدار فوضى مع تكاثر بني آدم، ولكن المواجهة مع الانحدار كانت جادّة باصطفاء الأنبياء والرّسل عليهم الصّلاة والسّلام فكان الارتقاء إيمانا بالحقّ ووجوب اتباعه، ومع ذلك ظلت المواجهة بين ما هو فطري وأسطوري، وبين ما هو مُعجز؛ ممّا حفّز العقل الإنساني إلى توليد الفكرة من الفِكرة، فكان الارتقاء وعيا في مقابل الانحدار جهلا، ومع ذلك ظلّت الفوضى هي المتغيّر المتربّص بكلّ تقدّم وارتقاء؛ فحيثما تُبنى حضارة تُهدّ بأيدي بُناتِها، وحيثما تؤسّس دولة تسقط بأيدي بنيها، {ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ

بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ}[74]. ولكن اليأس والقنوط لم يجد مكانا له في عقول وإرادة المؤمنين بأهميّة الارتقاء وضرورته وجودا؛ فكان التعلّم والتعليم من متغيرات الحياة ارتقاء؛ فجاءت النّهضة علما وإعمارا وإنتاجا وتنظيما؛ فكان غزو الفضاء فُسحة الاستكشاف العلمي لمن شاء أن يرتقي إلى ذلك المأمول الذي فقده آدم (العيش النّعيم)، وفي المقابل ظلّت الفوضى بألوانها المختلفة (الثُلث المعطّل للإرادة)؛ فمرّة تأخذ صفة العبودية، ومرّة تأخذ صفة استعمارية (احتلال الدّول)، ومرّة تأخذ صفة الجوع، وأخرى تأخذ صفة المظلومين، وهكذا تتولّد الفوضى من رحم الأنظمة، ومع ذلك؛ فهي مرّة تؤدّي بأصحابها إلى الانحدار، وأخرى تؤدّي بهم إلى النّهوض.

فذلك الإنسان الأوّل (آدم) الذي خَلقه الله في أحسن تقويم، وعلّمه ما لم يكن يعلم، فكرّمه، وفضّله على كثير ممّن خلق، واصطفاه نبيًّا للملائكة والجنّ والإنس، كان وزوجه أساس التكاثر، والتناقض؛ فهو أساس الارتقاء والانحدار، والفوضى والنّظام، والقوّة والضّعف، والاختلاف والاتفاق، والخطأ والصّواب، ومع ذلك فهو مصدر المعرفة الواعية بعد أن أنبأه الله وعلّمه، ولأنّه كذلك فهل يصدق عليه القول: كان يأكل اللحم نيّا، ولم يكن يعرف النّار؟

هكذا كُتب تاريخ الإنسان الأوّل، وكأنّه لم يكن آدم (أوّل الخَلق البشري)، تاريخ كُتب بلا وثائق، ولا شواهد دالة على ما كُتب، ومع ذلك أُخذ حكما، وكأنّه مسلّمات، وفيه صورة الإنسان الأوّل رُسمت بعقل من ظنّ أنّ أصل الإنسان الأوّل قرد، ثمّ تطوّر، وهذا ما يخالف قوله: {وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ}[75].

---

[74] الرّوم 41.

[75] التغابن 3.

ولذا؛ فالإنسان الذي خُلق على هذه الصّورة، وعلّمه الله الأسماء (الأسرار) التي منها النّار؛ فكيف يُقبل ما قيل عنه: لقد عرف النّار مصادفة، ومن يصدّق هذا القول كمن يصدّق أنَّ النّار لم تكن اسما، {وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا}[76]، ولأنّ الله علّمه الأسماء كلّها؛ فهو يعلم الأسماء والأسرار التي من ورائها بلا استثناء.

ومن ثمّ؛ فمع أنَّ الإنسان خُلق على الارتقاء، فإنَّه انحدر رغبة وغفلة، ثمّ انتبه لأمره ارتقاء؛ فاستغفر لذنبه؛ فتاب الله عليه، وجعله من المكرّمين، {وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا}[77]. ومع أنّهم المفضّلين، فإنَّ البعض غير مقدّرٍ لهذا التفضيل؛ فمنهم من ضلّ، ومنهم من اهتدى، وهم لا يزالون مختلفين وسيظلون كذلك.

ولأنّهم مختلفون وسيظلون كذلك فهم في حاجة للالتقاء والحوار والجدل من أجل الاتفاق، ولهذا؛ فالمختلفون هم الذين في حاجة للالتقاء، وليس أولئك المتفقين؛ فالمتفقون كلّما التقوا كرّروا أنفسهم، حيث لا جديد يضاف.

ولذا؛ فمن أراد أن يجد لنفسه مكانة وارتقاء فعليه بالالتقاء مع المختلفين بهدف الاتفاق، حتى لا يكون الالتقاء وكأنّه غاية في ذاته. ثمّ عليه بالتذكّر ارتقاء، كي يتجاوز المتذكّر ما يعيق أو يسيء ويؤلم؛ فيأخذ بما يفيد من عبر ومواعظ وتجارب إنسانية تفاديا لما يؤزّم العلاقات أو يؤخّر التقدّم تجاه ما يفيد؛ ولذلك فالتذكّر يمدّ المفكّرين والمخطّطين بما يحفّزهم على بلوغ ما يجب الإقدام عليه ارتقاء.

---

[76] البقرة 31.

[77] الإسراء 70.

ومع أنّ التذكّر يرتبط بالموروث المعرفي والتّاريخي، فإنَّه بالنّسبة لمن خُلق أوّلا (آدم) لا وجود له، لكونه لم يمرّ بمرحلة الحمل والطفولة والمراهقة؛ فهو قد خُلق على الرّجولة خلقا، وبالتّالي ليس له ما يتذكّر، ولكن بعد أن علّمه الله وأنبأه أصبح لديه رصيد واسع من العلم والمعرفة؛ فيُمكنه أن يتذكّره ليذكّر به الغير، {قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ}[78]؛ فتلك الأسماء التي أصبحت في محفظة عقل آدم، وتمّ استدعاؤها، أنبأ بها الملائكة حجة؛ فسلّم الملائكة لآدم بعد أن كان الرأي اختلافا.

ولكن على المستوى البشري من بعد آدم؛ فالتّجارب الإنسانية متشابهة، ويمكن تكرارها، فيكون النّظر إلى تلك التجارب من باب البحث عن حلولٍ علّها تكون ناجعة في معالجة ما يحدث، وهنا تكون النّظرة إلى الماضي من باب البحث عن كلّ ما من شأنه أن يسهم في الوصول إلى حلّ، حتى وإن كان افتراضيا، لأنَّ الكثير من المشاكلّ تحتاج إلى اتكاءات جديدة تكون قادرة على حلّها؛ فيحدث الانزياح المراد ضمن توليفة يُجمع فيها في بعض الأحيان حتى النقائض التي لا يتوقّع لها أن تجتمع في يوم من الأيام.

وقد يكون الخوف حاضرا فيها، لكونه يمثّل الانطلاقة الأولى التي يكون على أساسها الوصول إلى الغايات المرجوة؛ فالبحث عن اتفاق وحلّ يكمن من خلفه وجود خوف يحفّز ويرشد بطريقة أو بأخرى إلى تجنّب ما يجب تجنّبه وأخذ ما يجب الأخذ به؛ فيكون الاستشعار في هذا التوجّه قائما على درجة عالية من الحذر كي تكون النّهاية ملبّية للخوف المجنّب من الوقوع في السُفلية ومؤدّيا إلى ارتقاء مأمول.

وعليه:

[78] البقرة 33.

وجب التدبّر باعتباره دراية عقلية يرتقي بحاضر أصحابه إلى ما يمكنّهم من الأخذ بما ينبغي في سبيل إحداث النُّقلة سياسة واقتصادا وعلما وحداثة، نُقلة تطوي صفحات الحاجات المتطوّرة بمشبعات مُرضية وفقا للفرضيات التي تأسّست عليها؛ ممّا يجعل المعالجة منطوية على إيجاد حلول سريعة يمكن من خلالها تفادي المشكلة، أو حلّها من جذورها؛ فالتدبُّر ارتقاء يمكّن من مواجهة المفاجآت التي يمكن أن تحصل دون أن تترك أثرا سلبيا.

ويتّسع التدبّر ارتقاء ليكون حضوره ملبّيا أو محتويا للأحداث الحاصلة، إلاّ أنّه لا يكون حلّا نهائيا؛ فكلّ الحلول الآنية قد لا تصلح لأن تكون حلولا دائمة، لكنّها في وقتها إن كانت ارتقاء؛ فهي لا شكّ تمثّل الحلّ الأمثل في دائرة الممكن الذي تكون نتائجه باهرة وغير متوقّعة، كما أنَّ التدبُّر وإن كان آنيا فإنَّه يفتح مدارك الإنسان رُقيّا في البحث عن حلول تكمن فيها النّهاية المرجوة، التي تتّسع لكلّ المفاجآت التي يمكن أن تحدث.

أمّا التفكّر ارتقاء؛ فهو الذي لم يكن منزويا عن الماضي والحاضر، بل هو مرتبط بهما ويمثلان له قاعدة التأسيس لكلّ الافتراضات التي من شأنها أن تكون مساهمة وفاعلة في صناعة المستقبل المأمول ارتقاء.

ولأجل النّهوض ارتقاء وجب المزيد من البحث العلمي الممكِّن من المعرفة الواعية التي بدورها تُمكّن من الإسراع في طي الهوة بين المأمول والأمل، وذلك بما يطوي مشاعر الخوف طمأنينة، ويخلّص من الحيرة حلّا بعد تأزّم؛ فالبحث العلمي ارتقاء يستوجب أسلوبا مرنا، وطريقة تستوعب التاريخ تجربة ومنهجا ووسيلة.

ولأنَّ الإنسان قد خُلق في أحسن تقويم فليس له بدّ إلّا المحافظة على حُسن تقويمه، وهذه قاعدة، ولكن إن انحدر استثناء، وبأيّة علّة؛ فليس له إلّا النّهوض، وهذه قاعدة أيضا.

ولأنَّ الانحدار بين قاعدتين (حُسن الخَلق، وضرورة الارتقاء) فهو باق ما دمنا باقين، وله الثلث في حياتنا من المورث انحدارا، ولهذا؛ فلا داعي للقلق بما أنّنا نرث الثلثين (خلقا وارتقاء)، ولكن هذا لا يعني: أن نظل كمن ترك له أبوه إرثا ولم يستثمره؛ فانتهى صفرا.

ولأنَّ لكلّ قاعدة شذوذا؛ إذا فلا إمكانية لبلوغ الحلّ كمالا؛ فتلك الجهود عبر التّاريخ، وهذه الجهود، ستتلاقح ارتقاء بغاية إنتاج الفِكْر الممكِّن من إشباع الحاجات المتطوّرة.

ولأنّ الارتقاء رغبة وأمل إذا سيظل أملا، ولا يُمكن أن يلاحق إلّا بالعمل إنتاجا وإعمارا وبناء وبحثا علميا، مع الاهتمام بالقيم التي تنال التقدير من النّاس.

الارتقاء عملا:

الكلمةُ مهما عظمت إن لم تتجسّد في سلوك يدفع إلى العمل المنتج تظلّ كلمة في حاجة للحياة، ولا حياة لها إلّا العمل، ولكن أيّ عمل؟ إنّه العمل ارتقاء (بناء وإصلاحا وإعمارا)، والعمل ارتقاء هو إنشاء الشيء من الشيءٍ، كما أنشأ نوح عليه السّلام سفينة النّجاة من جذوع الشّجر إبداعا.

وهكذا جميع الأنبياء عليهم السّلام أرسلوا للنّاس من أجل الهداية والعمل ارتقاء؛ فكانت القيم الحميدة والفضائل الخيّرة جنبا إلى جنب مع الإصلاح والبناء والإعمار ارتقاء عبر التّاريخ؛ فالإنسان الأوّل الذي خُلق في الجنّة رأى الارتقاء بأمّ عينه، بل عاش الارتقاء حياة نعيم، ولكن بأسباب المخالفة والمعصية ارتكب خطأ فأخرج به هبوطا من الجنّة إلى الحياة الدّنيا، والتي من بعدها أصبح واضعا نصب عينيه أمل العودة إلى تلك الجنّة، التي ضاعت من بين يديه وهو يتحسّر، بما أقدم عليه إرادة، حتى وإن كان بأسباب

الإغواء، ولكن بعد أن استغفر ربّه ظل يعمل من أجل العودة إلى ذلك العيش الرّغد الذي حُرم منه بما ارتكبه من فعل منهي عنه، ومع ذلك ساد الصّراع بين النّاس إلى يومنا هذا (بين من صدّق الرّسل ومن كذّبهم)؛ فمن صدّق الرّسل يأمل كما أمِلَ الإنسان الأوّل الارتقاء إلى الجنّة التي عاشها حياة فردوس، ومن لم يصدّق فلا يرى جنّة، وهنا تكمن العلّة.

وهكذا؛ فالإنسان لم يقف عند ما يأمله، بل تجاوزه بالعمل حتى صعد إلى القمر الذي كان يعتقد أنّه الجنّة، ثم تجاوز القمر كونه لم يكن كذلك، فغزى الفضاء اكتشافا، وهو في سعيه لم ييأس ارتقاء من بلوغ ما هو أعظم، ولا غاية له من وراء ذلك إلّا بلوغ الجنّة، إنّها رسالة الأنبياء عليهم السّلام فمن أخذ بها ارتقاء أخذ بما يجب الأخذ به، ومن لم يأخذ بها فلن يبلغ التقدّم والارتقاء المحقّق لإشباع الحاجات المتطوّرة، وبناء الحضارة التي ترتقي بصُنّاعها إلى صناعة المزيد.

ومع أنَّ الإنسان خُلق على الارتقاء خَلقا، فإنَّه لم يحافظ على ارتقائه؛ فأُهبط به من علوٍ إلى دنيا، ومع ذلك عينيه لم تفارق السّماء، ظلّت تبصر هناك بأمل العودة، وهذا الأمر هو الذي حفّزه على العمل ودفعه إليه ارتقاء.

إنَّ الإنسان لو لم يكن مؤهلا للارتقاء ما فكّر وتدبّر حتّى تمكّن من اقتناص الفكرة التي مكنته من غزو الفضاء وهو يأمل في المزيد.

إنَّ ما بلغه الإنسان من ارتقاء علمي وثقافي وحضاري يؤسّس قاعدة عريضة للمزيد المعرفي الممكّن من الإصلاح والبناء وقبول التحدّي من أجل الأفضل والأفيد والأنفع والأرقى.

وستظلّ الفكرة فكرة مجرّدة إلى أن تتجسّد في سلوك أو فعل ينجز عملا، يشبع حاجة، والعمل المشبع للحاجة المتطوّرة هو العمل المؤسّس على

الفكرة ارتقاء، التي تتجاوز التوقّف عند حدود الإصلاح إلى بلوغ الحلّ حيث لا تأزّم من بعده.

ولأنّ الفكرة الرّائدة تقود إلى العمل المبدع فالعمل المبدع بداية قد يصفه البعض بالمستحيل بالرّغم من تحقّقه مشاهدة وملاحظة؛ فالهبوط على القمر البعض كذّبه بداية، ولكنّه لم يصمد في تكذيبه، لكونه أصبح حقيقة لا تُخفى.

ومن ثمّ؛ فالصّعود إلى القمر يعدّ عملا من أعمال الخوارق التي بإمكان العقل البشري أن يبلغ ما هو أعظم منه، فالإنسان الذي خُلق في أحسن تقويم هو الإنسان المحقّق للخوارق وفقا لدائرة الممكن المتوقّع وغير المتوقّع، ولا استغراب، ولا مفاجأة، بل الاستغراب ألّا يرتقي عقل الإنسان إلى اقتناص الفكرة الممكّنة من الارتقاء الأعظم.

وهنا، أقول:

الجنّة بين أيديكم؛ فاعملوا يا بني آدم من أجلها، فاغزوا الفضاء بكلّ الخوارق التي بإمكانكم العمل عليها والعمل بها؛ فبلوغ الجنّة غير مستحيل، بل المستحيل ألَّا تعملوا ارتقاء من أجل بلوغها.

إنّني لا أقول مواعظ، بل لِمَ لا نتعظ، ونتدبّر أمرنا حتى نتمكّن من بلوغ الخوارق ارتقاء؟ ومن يرى غير ذلك فكأنّه لم يُخلق بصيرا، وليس له من الحواس ما يمكّنه من خَلق الخوارق وتجاوزها بخوارق أكثر ارتقاء؛ فمن يغفل عن ذلك فكأنّه قد غفل عمّا بنته الحواس وما ستبنيه من حضارات؛ فالتذكّر يربط العقل بما أنجزته أيدي النّاس، وبما غفلت عنه، ليتدبّر حاضره، ويفكّر في مستقبل يستوجب رسم الخطط الممكّنة من الخوارق في دائرة الممكن.

وعليه:

فالإنسان مؤهّل للارتقاء عقلا وحسّا؛ فهو يتذكّر؛ ليتّعظ ويُصلح، ويتدبّر؛ ليبني وينتج، ويفكّر؛ لإيجاد خارقة بها يصنع مستقبلا راقيا، يَرتق الأرض بالسّماء.

ومن ثمّ؛ فمن أراد أن يكون له شأن فليعمل على تحقيق المكانة قيما وفضائل، وإذا أراد الإنسان أن يرتقي قيما وفضائل؛ فليأخذ بمفاتيح العلم، ويبدأ إصلاح حاله من حيث هو، حتى يهيئ نفسه ويتأهب للعمل من أجل تحقيق ما ينبغي أن يكون عليه ارتقاء.

ولكي يبلغ الإنسان مأموله قيما وفضائل؛ فعليه أن يكون قدوة حسنة لبني جنسه، فإذا حكم عدل، وإذا شهد شهد حقّا، وإذا عاهد أوفى، وإذا قال صدق، وإذا عمل أحسن عمله، وإذا تعلّمَ علّمَ، وإذا اكتال أوفى، وإذا رأى فتنة بين النّاس أصلح، وإذا غضب تملّك نفسه، وإذا ذُكِر بخيرٍ فعليه بالمزيد، وإذا ذُكر بسوءٍ فليصفح وليعفُ.

ولذلك؛ فالتمسّك بالقيم كونها قيما، لا يفيد، بل المفيد العمل بها قولا وسلوكا، ولهذا ينبغي أن يتشرّبها النشء تربية وتعلّما وتعليما حتّى يجسدوها سلوكا كما جسدها أهل القدوة الحسنة.

فالارتقاء حركة دؤوبة يتحقّق عبر التّاريخ بالجهد الرّصين والعمل المتّصل، الذي منه تؤخذ العبر، وتستمدّ المواعظ، وتنقل التجارب النّاجحة شواهد؛ فالارتقاء لا يحدث فجأة؛ فهو مثل الوليد، يولد وهو في حاجة للرّعاية والعناية، ثمّ يكسب قوّة تدفعه إلى تحقيق ما هو أعظم، وهو كالبناء بدايته وضع حجرة على الأرض، ثمّ يصبح صرحا شامخا وكأنّه يريد أن يفتق الأرض بالسّماء ثانية؛ فهكذا هو الارتقاء تطلّعا يجسّد الطموح، ويمكّن من بناء حضارات أهلها يسودون ثمّ يفنون، وتبقى الحضارة تاريخا متكئا على الارتقاء علما وفكرا وقيما وفنّا وثّقافة وإعمارا وبناء.

ولأنّ التاريخ البشري مليء بالتّجارب النّاجحة، وكذلك الفاشلة، فهو قد مرّ بنشوء حضارات سادت ثمّ بادت وحلّت محلّها حضارات أخرى؛ ففي تلك الأحقاب سادت حضارة عاد وثمود، ومن بعدها حضارات الغرب، وحضارة الفرس، وحضارة الإسلام والعرب، واليوم حضارات الشّعوب تتداخل لتسود القرية الصّغيرة؛ فهي بالرّغم من تنوّعها، ولكن، وكأنّها حضارة أمّة واحدة، إنّها تقدّر الخصوصيّة، وتُمكّن من الاندماج علما ومعرفة، وتقنية وإعمارا، وتؤكّد قيمة الإنسان في ممارسة حقوقه، وأداء واجباته، وحمْل مسؤولياته وبكلّ شفافية.

ومع ذلك؛ فالإنسان دائما في حاجة للارتقاء؛ فهو يسعى من أجل حياة أكثر أمنا، وأكثر نعيما، وأكثر عدلا، وأكثر رقيّا؛ فقيمة الإنسان الذي خُلق في أحسن تقويم تستوجب تقديرا عاليا، ورعاية صحية متقدّمة، وتعليما يخلّص من أيّ تأزمات تحدث، ونُظُمًا تُمكّن من التمدّد بكلّ حرّية دون أن يحدث أيّ تماسّ مع تمدّد الآخرين بكلّ حرّية.

ولكن هذه لن تتحقّق ما لم يرتقِ الإنسان عن مثيرات الشّهوة، وإغواءات النّفس، ومغريات الحياة الدّنيا (السُفلية)، وتفضيلات الأنا على حساب الغير.

ولذلك؛ فالاختلاف والخلاف لن ينقطعا بين النّاس بما أنّ هناك من يرى القيم والفضائل أساس العمل والتقدّم والارتقاء، وبين من يراها لا تزيد على كونها قيودا ينبغي أن تزال متى ما تعارضت مع المصلحة الخاصّة. ومن ثمّ؛ فالرّغبة في بعض الأحيان تتمركز على (الأنا) أنا ومن بعدي الطوفان، وهنا تكمن العلّة.

وحتى لا تكون العلّة نهاية المطاف ينبغي بلوغ الحلّ الذي يحتوي في مضمونه قبول الآخر (هو كما هو)، والعمل معه (من حيث هو)، من أجل

الارتقاء سويّا إلى مستقبل مأمول؛ فالفرد وإن خُلق فردا؛ فهو لم يُخلق وحيدا، ولهذا، لا ينبغي أن يفكّر وحيدا، ولا ينبغي أن يعيش وحيدا، بل ينبغي أن يفكّر حتى يعرف كيف يفكّر جماعيا، وأن يعمل مع الآخرين ارتقاء بغاية ما يجب.

إنَّ العمل والسّلوك لا يكونان إلّا نتاج قرار في دائرة الممكن، والقرار سيظل مجّرد تصميم وفقا للرّغبة إلى أن ينفّذ بمسؤولية، ولكي يتمكّن الإنسان من اتخاذ قراره عن وعي؛ فعليه بمعرفة العلاقة التي تربط قوّة قراره بقوّة اتخاذه؛ فقوّة القرار تكمن فيما يحقّقه من فوائد، وما يترتّب عليه من ارتقاء مأمول، وما يحدثه من مفاجآت موجبة، ومن ثم؛ فاتخاذ القرار ارتقاء يُمكِّن من إحداث النقلة[79].

[79] عقيل حسين عقيل، من معجزات الكون (الخلق ـ النشوء ـ الارتقاء)، المجمعة الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، ص 258 ـ 274.

صدر للمؤلّف

صدر للمؤلّف 68 بحثا نشرت داخل ليبيا وخارجها.

صدر له (126) مؤلّفا منها خمس موسوعات.

أشرف وناقش 74 رسالة ماجستير ودكتوراه.

. مجالات اهتمام المؤلف البحثية:

1 . الخدمة الاجتماعية والتنمية البشرية.

2 . طرق البحث الاجتماعي.

3 . الفكر والسياسة.

4 . الإسلاميات.

5 . الأدب

تُرجمت ونشرت له مؤلّفات باللغة الإنجليزية والتركية.

المؤلّفات

1 . مستوى التحصيل العلمي بمرحلة التعليم المتوسط، طرابلس ليبيا، 1989م.

2 . الأصول الفلسفية لتنظيم المجتمع، منشورات جامعة طرابلس، ليبيا، 1992م.

3. فلسفة مناهج البحث العلمي، منشورات الجأ، 1995م.

4 . منهج تحليل المعلومات وتحليل المضمون، منشورات الجأ، مالطا، 1996م.

5 ـ سيادة البشر دراسة في تطور الفكر الاجتماعي، منشورات الجأ، مالطا، 1997م.

6 ـ المفاهيم العلمية دراسة في فلسفة التحليل، المؤسسة العربية للنشر وإبداع، الدار البيضاء، 1999م.

7 ـ البستان الحلم، دار الآفاق الجديدة، بيروت، 1999م.

8 ـ التصنيف القيمي للعولمة، منشورات الجأ، مالطا، 2001م.

9 ـ الديمقراطية في عصر العولمة (كسر القيد بالقيد)، دار الجأ، مالطا، 2001م.

10 ـ نشوة ذاكرة، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، 2004م.

11 ـ خماسي تحليل القيم، دار الكتاب المتحدة، بيروت، 2004م.

12 ـ منطق الحوار بين الأنا والآخر، دار الكتاب المتحدة، بيروت، 2004م.

13 ـ خدمة الفرد قيم وحداثة، دار الحكمة، 2006م.

14 ـ خدمة الجماعة رؤية قيمية معاصرة، دار الحكمة، 2006م.

15 ـ البرمجية القيمية لمهنة الخدمة الاجتماعية، الدار الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2007م.

16 ـ البرمجية القيمية في طريقة تنظيم المجتمع، الدار الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2007م.

17 ـ البرمجية القيمية في طريقة خدمة الجماعة، الدار الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2007م.

18. الموسوعة القيمية لبرمجية الخدمة الاجتماعية، الدار الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2007م.

19 ـ البرمجية القيمية في خدمة الفرد، الدار الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2008م.

20 ـ مفاهيم في استراتيجيات المعرفة، الدار الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2008م.

21 ـ المقدمة في أسماء الله الحسنى وأثرها في استخلاف الإنسان في الأرض، دار ابن كثير، بيروت ـ دمشق، 2009م.

22 ـ موسوعة أسماء الله الحسنى وأثرها في استخلاف الإنسان في الأرض، دار ابن كثير، دمشق ـ بيروت، 2009م.

23 ـ ألستم من آل البيت، دار ابن كثير، دمشق ـ بيروت، 2010م.

24 ـ مختصر موسوعة أسماء الله الحسنى وأثرها في استخلاف الإنسان في الأرض، دار ابن كثير، دمشق ـ بيروت، 2010م.

25 ـ خطوات البحث العلمي (من تحديد المشكلة إلى تفسير النتيجة)، دار ابن كثير، دمشق ـ بيروت، 2010م.

26 ـ قواعد المنهج وطرق البحث العلمي، دار ابن كثير، دمشق ـ بيروت، 2010م.

27 ـ أسماء حُسنى غير الأسماء الحسنى، دار ابن كثير، دمشق ـ بيروت، 2010م.

28 ـ آدم من وحي القرآن، دار ابن كثير، دمشق ـ بيروت، 2010م.

29 ـ نوح من وحي القرآن، دار ابن كثير، دمشق ـ بيروت، 2010م.

30 . إدريس وهود وصالح من وحي القرآن، دار ابن كثير، دمشق . بيروت، 2010م.

31 . إبراهيم وإسحاق وإسماعيل ولوط من وحي القرآن، دار ابن كثير، دمشق . بيروت، 2010م.

32 . شعيب من وحي القرآن، دار ابن كثير، دمشق . بيروت، 2010م.

33 . يعقوب ويوسف من وحي القرآن، دار ابن كثير، دمشق . بيروت، 2010م.

34 . داوود وسليمان من وحي القرآن، دار ابن كثير، دمشق . بيروت، 2010م.

35 . يونس من وحي القرآن، دار ابن كثير، دمشق . بيروت، 2010م.

36 . أيوب واليسع وذو الكفل وإلياس من وحي القرآن، دار ابن كثير، دمشق . بيروت، 2010م.

37 . موسى من وحي القرآن، دار ابن كثير، دمشق . بيروت، 2010م.

38 . عيسى من وحي القرآن، دار ابن كثير، دمشق . بيروت، 2010م.

39 . محمَّد من وحي القرآن، دار ابن كثير، دمشق . بيروت، 2010م.

40 . صفات الأنبياء من قصص القرآن، آدم ونوح، المجموعة الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2010م.

41 . صفات الأنبياء من قصص القرآن، ادريس ويعقوب ويوسف، المجموعة الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2010م.

42 . صفات الأنبياء من قصص القرآن، أيوب وذو الكفل واليسع والياس، المجموعة الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2010م.

43 . صفات الأنبياء من قصص القرآن، موسى وهارون وعيسى، المجموعة الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2010م.

44 . صفات الأنبياء من قصص القرآن، يونس وزكريا ويحيى، المجموعة الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2010م.

45 . صفات الأنبياء من قصص القرآن، إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ولوط، المجموعة الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2010م.

46 . صفات الأنبياء من قصص القرآن، هود وصالح وشعيب، المجموعة الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2010م.

47 . صفات الأنبياء من قصص القرآن، داوود وسليمان، المجموعة الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2010م.

48 . صفات الأنبياء من قصص القرآن، النبي محمَّد، المجموعة الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2010م.

49 . موسوعة صفات الأنبياء من قصص القرآن، المجموعة الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2010م.

50 . موسوعة الأنبياء من وحي القرآن، المجموعة الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2010م.

51 . التطرُّف من التهيّؤ إلى الحلّ، المجموعة الدولية للطباعة وانشر، القاهرة، 2011م.

52 . ألسنا أمةً وسطا، ابن كثير، دمشق . بيروت، 2011م.

53 . المنهج وطريقة تحليل المضمون، ابن كثير، دمشق . بيروت، 2011م.

54 . الإرهاب (بين قادحيه ومادحيه) المجموعة الدولية للطباعة وانشر، القاهرة، 2011م.

55 . الخوف وآفاق المستقبل، المجموعة الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2011م.

56 . سُنن التدافع، شركة الملتقى للطباعة وانشر للطباعة والنشر، بيروت: 2011م.

57 . خريف السُّلطان (الرَّحيل المتوقّع وغير المتوقّع) شركة الملتقى للطباعة وانشر، بيروت، 2011م.

58 . من قيم القرآن الكريم (قيم إقداميّة) شركة الملتقى للطباعة وانشر، بيروت، 2011م.

59 . من قيم القرآن الكريم (قيم تدبّرية) شركة الملتقى للطباعة وانشر، بيروت، 2011م.

60 . من قيم القرآن الكريم (قيم وثوقيّة) شركة الملتقى للطباعة وانشر، بيروت، 2011م.

61 . من قيم القرآن الكريم (قيم تأييدية) شركة الملتقى للطباعة وانشر، بيروت، 2011م.

62 . من قيم القرآن الكريم (قيم مناصرة) شركة الملتقى للطباعة وانشر، بيروت، 2011م.

63 . من قيم القرآن الكريم (قيم استبصارية) شركة الملتقى للطباعة وانشر، بيروت، 2011م.

64 . من قيم القرآن الكريم (قيم تحفيزية) شركة الملتقى للطباعة وانشر، بيروت، 2011م.

65 . من قيم القرآن الكريم (قيم وعظية) شركة الملتقى للطباعة وانشر، بيروت، 2011م.

66 . من قيم القرآن الكريم (قيم شواهد) شركة الملتقى للطباعة وانشر، بيروت، 2011م.

67 . من قيم القرآن (قيم مرجعيّة) شركة الملتقى للطباعة وانشر، بيروت، 2011م.

68 . من قيم القرآن الكريم (قيم تسليمية) شركة الملتقى للطباعة والنشر، بيروت، 2011م.

69 . من قيم القرآن الكريم (قيم تسامح)، شركة الملتقي للطباعة والنشر، بيروت، 2011م.

70 . من قيم القرآن الكريم (قيم تيقُّنيّة)، شركة الملتقى للطباعة والنشر، بيروت، 2011م.

71 . الرفض استشعار حرية، دار الملتقى، بيروت، 2011م.

72 . تقويض القيم (من التكميم إلى تفجّر الثورات)، شركة الملتقى، بيروت، 2011م.

73 . ربيع النّاس (من الإصلاح إلى الحلّ) المجموعة الدولية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2011م.

74 . موسوعة القيم من القرآن الكريم، شركة الملتقى للطباعة والنشر، بيروت، 2012م

75 . أسرار وحقائق من زمن القذافي، المجموعة الدولية للنشر والتوزيع، القاهرة، ودار المختار طرابلس، 2013م.

76 . وماذا بعد القذافي؟ المجموعة الدولية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2013م.

77 . ثورات الرّبيع العربي (ماذا بعد؟) المجموعة الدولية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2013م.

78 . العزل السياسي بين حرمان وهيمنة، الزّعيم للخدمات المكتبية والنشر، القاهرة، 2014م.

79 . السياسة بين خلاف واختلاف، الزّعيم للخدمات المكتبية والنشر، القاهرة، 3014.

80 . الهويّة الوطنية بين متوقّع وغير متوقّع، الزّعيم للخدمات المكتبية والنشر، القاهرة، 2014.

81 . العفو العام والمصالحة الوطنية، الزّعيم للخدمات المكتبية والنشر، القاهرة، 2014م.

82 . فوضى الحلّ، الزّعيم للخدمات المكتبية والنشر، القاهرة، 2014م.

83 . بسم الله بداية ونهاية، القاهرة، الزّعيم للخدمات المكتبية والنشر، 2015.

84 . من معجزات الكون (خَلق . نشوء . ارتقاء)، المجموعة الدولية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2016م.

85 . مقدّمة الأنبياء من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م

86 . موسوعة الأنبياء من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م

87 . آدم من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

88 . إدريس من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

89 . نوح من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م 89 .

90 . هود من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

91 . صالح من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

92 . لوط من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

93 . إبراهيم من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

94 . إسماعيل من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

95 . إسحاق من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

96 . يعقوب من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

97 . يوسف من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

98 . شعيب من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

99 . أيوب من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

100. ذو الكفل من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

101 . يونس من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

102 . موسى من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

103. هارون من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

104. إلياس من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

105. اليسع من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

106. داوود من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

107. سليمان من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

108. زكريا من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

109. يحيى من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

110 عيسى من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

111. محمّد من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

112. الدّعاء ومفاتيحه، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة، 2017م.

113 . صُنع المستقبل، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م

114 . الفاعلون من الإرادة إلى الفعل، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م

115 . مبادئ التنمية البشرية، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م

116 . من الفِكَر إلى الفِكْر، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م

117 . التهيؤ، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م

118 . منابع الأمل، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م

119 . الأمل، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م

120 . المبادئ الرئيسة للسياسات الرّفيعة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة، 2018م.

121 . مبادئ فكّ التأزّمات بين الأنا والآخر، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2018م.

122 . المعلومة الصائبة تصحح الخاطئة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2018م.

123 . مبادئ تحدّي الصعاب، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2018م.

124 . تحدّي الصِّعاب، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2018م.

125 . الواحديّة من الخلق إلى البعث، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2018م.

126 . الممكن (متوقّع وغير متوقّع)، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2018م.

لمؤلّف في سطور

أ د. عقيل حسين عقيل

مواليد ليبيا 1953م

بكالوريوس آداب 1976م بدرجة الشّرف الأولى جامعة الفاتح (طرابلس).

ماجستير تربية وتنمية بشرية جامعة جورج واشنطن 1981م مع درجة الشّرف.

. دكتوراه في الخدمة الاجتماعية.

. أستاذ بجامعة الفاتح كلية الآداب (طرابلس).

. شغل منصب أمين تعليم بلدية طرابلس (1986 . 1990).

. انتخب من قبل مؤتمر الشعب العام مفتشا عامّا لقطاع الشؤون الاجتماعية، ثمّ كلّف بالتفتيش على وزارتي التعليم العام والتعليم العالي 2006م.

. شغل منصب أمين التعليم العالي (وزيرا) 2007 . 2009م.

. انتخب أمينا عاما للتنمية البشرية بأمانة مؤتمر الشّعب العام 2009م.

. صدر للمؤلّف 78 بحثا نشرت داخل ليبيا وخارجها.

. صدر له (126) مؤلّفا منها خمس موسوعات.

. أشرف وناقش 74 رسالة ماجستير ودكتوراه.

. مجالات اهتمام المؤلف البحثية:

1 . الخدمة الاجتماعية والتنمية البشرية.

2 . طرق البحث الاجتماعي.

3 . الفكر والسياسة.

4 . الإسلاميات.

5 . الأدب

تُرجمت ونشرت له مؤلّفات باللغة الإنجليزية والتركية.